

Mar 20 '39

~~20 001~~

للدريه الفاضل الاستاذ الكبير
البيداري . مع اصدقه التحية
وخلاص الود والتقدير لخدمته الكريمة
في الوقت
المقرر

خزانة دار الكتب
بدمشق

هتاف الجماهير

892.78

G4133h A1
ع. 1

تأليف

أمين يوسف غراب

يطلب من

مكتبة مصر ومطبعتها
٦٣ شارع الفجالة مصر

مطبعة مكتبة مصر

لجنة النشر للجامعيين

(لجنة الإنتاج الفنى)

أحمد —————	عبد الحميد جوده السحار	مايو سنة ١٩٤٣
رادويد —————	نجيب محفوظ عبد العزيز	يولية سنة ١٩٤٣
أبو ذر الغفارى	عبد الحميد جوده السحار	سبتمبر سنة ١٩٤٣
قـــــــــــــــــابل	محمود تيمور بك	نوفمبر سنة ١٩٤٣
أخاتون ونفرتيتى	على أحمد باكثير	ديسمبر سنة ١٩٤٣
ثلاثة رجال وامرأة	ابراهيم عبد القادر المازنى	يناير سنة ١٩٤٤
أقاصـــــــــــــــــيص	لنخبة من الأساتذة	فبراير سنة ١٩٤٤
سلامة القس	على أحمد باكثير	مارس سنة ١٩٤٤
ويك عنـــــــــــــــــتر	عادل كامـــــــــــــــــل	ابريل سنة ١٩٤٤
بلال مؤذن الرسول	عبد الحميد جوده السحار	مايو سنة ١٩٤٤
ع الماشى	ابراهيم عبد القادر المازنى	يونية سنة ١٩٤٤
حديقة أبى العلاء	كامـــــــــــــــــل كيلانى	يولية سنة ١٩٤٤
كفاح طيبة	نجيب محفوظ عبد العزيز	أغسطس سنة ١٩٤٤
خريف امرأة	إبراهيم المصرى	سبتمبر سنة ١٩٤٤
قصر الهودج	على أحمد باكثير	د سنة ١٩٤٤
عشاق العرب	كامل محمد عجلان	أكتوبر سنة ١٩٤٤
مليم الأكبر	غازل كامـــــــــــــــــل	نوفمبر سنة ١٩٤٤
فى الوظيفة	عبد الحميد جوده السحار	ديسمبر سنة ١٩٤٤
محمد رسول الله	مولاي محمد على	يناير سنة ١٩٤٥
عطر ودخان	محمود تيمور بك	فبراير سنة ١٩٤٥
وإســــــــــــــــلاماه	على أحمد باكثير	مارس سنة ١٩٤٥
الأطياف الأربعة	للإخوة الأربعة	ابريل سنة ١٩٤٥

مرايا الناس	السيدة وداد سكا كيني	مايو سنة ١٩٤٥
الشيء الصغير	الفونس دودية	مايو سنة ١٩٤٥
ملك من شعاع	عادل كام	يونية سنة ١٩٤٥
الفرعون الموعود	على أحمد باكثير	يونيه سنة ١٩٤٥
إبراهيم الكاتب	ابراهيم عبد القادر المازني	يوليه سنة ١٩٤٥
هتاف الجماهير	أمين يوسف غراب	يوليه سنة ١٩٤٥
مسرحة الأب	أوجست سترندبرج	أغسطس سنة ١٩٤٥

تحت الطبع :

الكأس السابعة	ص	إلاح ذهني
علم النفس التحليلي	محمود محمد	ود
الدهاة الثلاثة	عم	ر أبو النصر
خان الخليلي	نجيب محف	وظ
سعد بن أبي وقاص	عبد الحميد جوده	السحر
عمر الحاكم بأمر الله	على أحمد باكثير	

تسعة

ملوكا واولاد

مستعصما

إن اليوم الذي نتعلم فيه الهتاف
هو اليوم الذي لا نهتف بعده أبدا.
والساعة التي نعرف فيها من هم
الذين نهتف لهم، هي الساعة التي
تتحطم فيها الأصنام...

أمين يوسف غراب

بالقلم ومقاله

رقعة سفلى

ديكته راجي

وسات له الخاء راجيا

يوهلا اسفله

فهرست

أفراح السماء

السيد

الثوب المهلهل

صفقة رابحة

طريق الدنس

الاستاذة

الفطائر الثلاث

الظائفة

خواتم في أصابعه

عواء الكلاب

مفاتيح الأقفال

لفائف تحترق

رجل مسكين

الببل والحمامات السبع

هتاف الجماهير

كان الجوع هو الشيء الوحيد الذى يرهقها ، وهى تسير فى الطريق
حاملة على ساقها الهزيلتين جسدها المنهوك الخائر من فرط الإعياء .
راح يطاردها طوال النهار وهى تهرب منه ؛ وكان كلما لحقها ،
ورنت إليه مرغمة أو فكرت فيه على الرغم منها ، غافلها وغرس
أنيابه الحادة فى أحشائها ، ثم يروح يضغط بفكيه القويين على تلك
الأحشاء الرخوة اللينة حتى يكاد يمزقها تمزيقاً ، أو يلصقها بعضها
ببعض لصقاً ، فلا يسعها إلا أن تتأوه تأوهاً مكتوماً ، وتواصل
سيرها مستسلمة ، وإن بدا لها أن تثور على هذا العانى الذى لا يجيد
إلا الأذى المميت ، ثارت عليه ، ولكن بدمعة حبيسة تنطلق من
عينها المقرورة .

وظلت كذلك تسير وتسير على هذا النحو من الضنى المريع ،
والأذى الذى لا يحتمل ، إلى أن انقضى النهار ، وأقبل ليل الشتاء
القاسى ، وأقبل معه ذلك الصقيع الذى لا يرحم ، والذى غمرت
موجات برودته الكون واكتشفت كل ما فيه ، ثم راح رذاذه الثلجى
الهامى الذى لا يرى من فرط ضآلته وحدته ، يسقط على تعساء
الأحياء فيكاد يخترم أجسامهم الغضة اللينة التى قدر لها العرى فى
العراء . وأحست وهى تتلصص الخطى فى الطريق بلفحات البرد
تغمر جسدها المرتعش وتلهبها إلهاباً ، ثم تتركه لحظة تعود على أثرها
بسرعة البرق تلفح ما بدا منه عارياً فتصهره وتبدل لونه ، فلا يسعها

بإزاء ثورة الطبيعة عليها ، إلا أن تمد ذراعين أضناها الهزال
وأَمْضهما السؤال ؛ وتلم ، مكفـمـكـفة مصطكة ، أطراف ثوبها لتقى به
الجسد المنهوك ، فلا تجد إلا بقايا من ثوب قديم بال قطعت أوصاله
الوحدة ، وعصفت به ريح الشقاء ، فغدا كخيوط العناكب تخلقها
الشمس ، ويبيدها اللمس .

ومع ذلك تروح تعمل بيديها في بقاياها ، وكلها حجبت موضعاً
من جسدها ضاقت رقعة الثوب عن موضع عز عليها أن يرى ،
فتترأخى أناملها ، وتواصل نقل خطاها المترنحة ، وتروح تسير إلى غاية
هى نفسها تجهلها ، ولا تفكر فيها إلا كلها لاح لها خيال بقية من
سجارة ملقاة فى الطريق ، فتنتقض عليها وتتناولها ، وهنا تحس
وتعرف غايتها من السير فى الطرقات .

واستهواها منظر فى الطريق رآته وهى تسير . رآته جميلاً
أخذاً ، فلا لها أن تقف حباله حيناً تتأمله بعينها مرة ، وبجواسها
أخرى ، تلك الحواس التى ألهمتها رائحة الزيت المحروق التى تسربت
إلى خياشيمها من المقل السكير الموضوع على النار . رأت
الحاج برعى صاحب البطن المنتفخ ، الذى كشف عن ذراعيه
المترهلتين ، يُخرج من المقل بالمصفاة أقراص (الطعمية) ويضعها فى
طبق منبسط كبير .

وشاقها المنظر ، منظر أقراص الطعمية بلونها الذهبى الأخاذ ،
وراحتها الحلوة النفاذة ، فوقفت أمامه تتلظى ، وكل حواسها مسلطة

على عيني الرجل ، وكل غايتها أن يراها وأن يحس بما يجول في
خاطرها ، فيلقى إليها واحدة . وطال بها الوقوف ، وطال بها التأمل ،
وطال بها الشوق أيضاً ففكرت :

« إذا تقدمت منه وسألته واحدة أيجيب سؤالها أم يردها خائبة؟
وإذا ردها فماذا تفعل؟ ستسير في طريقها ! ولكنها ستحرم من
هذا الذي يسيل لعابها عليه ، ويتحرق قلبها إليه .

ولكن لماذا يردها؟! ولماذا لا يعطيها واحدة؟ ! بل ولماذا
لا يجعل من بين هاتيك الأقراص التي تمكاد تبلغ الألف عدا خمسة أو
عشرة لأمثالها للسائلين المحرومين . . . للمعوزين المحتاجين . . .
لهؤلاء الذين تدمى قرصات الجوع قلوبهم ، وأولئك الذين يحرق
أذى الحرمان نفوسهم .

ولكن من يدري ربما يكون كذلك . ربما يكون في صدره
هذا الذي ترينه عريضاً بقية من حنان . وفي قلبه هذا الذي ترينه
كبيراً بقية من إشفاق ، ومع ذلك جربى . . . تقدمي ،

ونقلت قدماً وخطت خطوة ، ولكنها عادت فأرجعتها في الحال
خشية أن ينهرها أو يركلها ، شأنه مع البنات الضاللات اللائى اعتدن أن
يعرجن عليه ، أو ينبشن عن رزقهن في القمامة التي يلقى بها أمام
حانوته ، وبذلك ينقطع خيط آمالها ، وتحرم حتى من لذة التفكير
في أمل تعيش عليه لحظات .

ووقفت حيناً يدفع الجوع قدمها دفعاً لتتقدم ، ويردها الخوف

رداً فلا تنقلها قيد أنملة . وكلما مر بها عابر وابتاع شيئاً من تلك الأقراص الذهبية الثمينة حولت دقة آمالها ونظراتها إليه، وضنت به خيراً ، حتى وهو ينصرف ويبتعد عنها تروح تنظر إليه ، وتتعلق بنظراتها بأذياله... من يدري ، فربما تأخذه الشفقة فيعود إليها ويعطيها واحدة ، ولكنه يبتعد ويبتعد دون أن يعود ، ويأتي غيره وينصرف ، ويأتي عشرات الناس وينصرفون دون أن يراها أحد .

أف من هؤلاء الأغنياء يا فاطمة . ما أقسى قلوبهم... إنهم يمرون بك دون أن يروك حتى رؤيا العين ، ولست أنت عنهم بمحتجبة ، وليست عيونهم رمضاء ولا هي كليلة النواظر . فلماذا هم كذلك ؟ لماذا لا يرون شجرة الصحراء في أوج الظهيرة ، ويرون الورقة الساقطة في عتمة الليل ؟ . وهمت أن تعيد إلى مخيلتها قصة ذلك الرجل الذي كان يأكل واقتربت منه ، فصفعها من أجل لقمة ، ثم التقت به تحت جناح الظلام ، ورأته يعرض على امرأة كل ما في جعبته لقاء ليله .

همت أن تعيد إلى مخيلتها هذه القصة ، ولكن رائحة الزيت المحروق عادت من جديد تداعب خياشيمها ، وتناوش حواسها ، فتنبهت وبعثت بطرفها كله مرة أخرى إلى عيني الحاج برعى وتعلقت بهما ، ولكنها لم تفكر هذه المرة كثيراً ، ولم تصبر طويلاً ، بل جمعت أشعث عزمها المبعثر ، واندفعت مرة واحدة ناحية الرجل ، ومن ثم بسطت يداً مرتعشة ، ومدت وجهاً شاحباً

شدته نظراتها الحيرى المتعلقة بوجهه ، وراحت تنتظر فى أمل ، وترجو فى صمت ظاهر ، أن يمن الرجل عليها ولو بواحدة . وكانت كلما يدده ناحية الطبق الذى فيه حياتها ، ظنته سيحقق الرجاء ، ويجيب الدعاء ، فتتشوف نظراتها ، وتتلهف أنفاسها ، وترتسم على ثغرها ابتسامة جذلة حلوة تنير وجهها الحزين ، كما يبتسم القمر من خلف السحاب فينير الغمامة التى تحجبه .

ولكن ذلك كله لم يكن ليدوم أكثر من لحظات تخبو على أثرها نظراتها ، وتتلاشى ابتساماتها ، عند ما ترى يد الرجل تمتد إلى يد غير يدها ، وتبصر عيناه وجهها غير وجهها .

ولما طال بها الانتظار ظنته لم يرها ، فتقدمت منه خطوات حتى دانت ، ومن ثم شدت على شفيتها المقرورتين حتى انفرجتا وتمتمت : « لقمة . »

وكان الرجل فظاً غليظ القلب من أولئك الذين لا يعرفون من إنسانيتهم غير اسمها ، فهو يبيده الغليظة على رأسها الصغير المحموم ، فأذهلتها الصفعة ، وهوى رأسها على صدرها الخافق المكدود ، وصرخت صرخة قاسية ، إلا أنها صرخة مكتومة لم تسمعها حتى أذاها . . . ومع ذلك لم تغضب ، ولم تثر ، ولم تنصرف أيضاً . . . ولا هى راحت تركض على غير وعى ، أو تولول على غير هدى . ذلك لأن الأذى ليس جديداً عليها ، فقد علمها التسول كيف تتلقى اللطمات ، كما علمها الجوع كيف تتحمل الإساءات . وكان ما فعلته أن ابتعدت

قليلًا حتى احتواها الظلام ، خففت دموعها ، وأصلحت أسماها .
وتحسست الكوز الذي تجمع فيه أعقاب السجائر ، فوجدته في مكانه من
يدها ، فاطمأنت وانطلقت إلى الرصيف المقابل وجلست لعل نفسها تهدأ .
وأحست بعد أن جلست قليلًا بثقل رأسها المتعب ، فحملته على
خفيها العاريتين المرتجفتين ، وأفسحت بجوارها مكانًا لذرعاها المرتعشة
التي بسطتها في الظلام الحالك تسائل أشباحه . ومن ثم راحت
تنتظر ، بيد أنها لم تمسك طويلاً على هذا الوضع ، فما كادت تمر بها
لحظات قصار حتى رأت شيئاً يدنو منها في الظلام ، ويضع يده عليها ،
ويربت على كتفها في حنان حلو ، سرت عذوبته في جسدها كله
فهدده وأعاد إليه الحياة ، فرفعت هديها ، ورنّت إرناؤه
مكسورة ، فإذا بها أمام شاب وسيم الطلعة وضاء الجبين ، تلوح على
حياه الضاحك مخايل النبل والطهر والكرم ، فنظرت إليه وتأملتته
وتمتمت :

— جائعة ! !

فمد يده واستهضها ، فانتصبت واقفة ، فتادها ، وانصرفت تتبعه
كما تتبع الشاة راعيها ، حتى دخل بها قصرًا شامخاً من تلك القصور
المقامة على الشاطئ كالعراس ، تحاكي خمائلها فراديس الجنان . وما
أن اجتازت بهوه الرحب الفسيح حتى تناولتها أيدي الجوارى
الحسان اللاتي ذهبن بها إلى الحمام ، ولم يمكن غير قليل حتى عدن بها
مشرقة بسامة ، ترفل في ثوب فضفاض من الحرير الأبيض يشبه في

نعومتها وليونته بشرة جسدها المتموج الذى راح بريقه يترأى
مضيئاً آمن خلال الشوب، كما يترأى النور ساطعاً آمن زجاجة المصباح.
وأدخلت غرفة رحة فسيحة الجنبات، فرشت بالدمقس،
وتصدرتها مرآة كبيرة ذات أجنحة مبسوطة، وجوانب ممدودة،
صفت عليها زجاجات العطر المصنفي، وعاب المساحيق المختلفة.
وقامت جارية عن يمينها وأخرى عن شمالها، وراحتا تدهنانها بسائل
العطر، وتزينانها بألوان المساحيق، حتى اكتملت زينتها، وتألقت
نضارتها، وغدت كالوردة البكر عندما يطارحها الهوى الذسيم
الهفواف، ويثبها الجوى فجر الربيع الهيمان، فتستيقظ نشوى تداعب
الصباح الجميل.

ثم جىء لها بعد ذلك بشوب آخر من الحرير الخالص، ما إن
ارتدته وانساب على جسدها حتى وضحت معالمه، ولاحت أما كن البروز
فيه عنيفة مشبوبة، كما بدت مواطن انخفاضاته سكرى مترنحة. ثم
تقدمت إحدى الجوارى وعقصت لها شعرها الفاحم من الأمام،
ثم تركته من الخلف يتدلى على كتفها فى تناثر وإهمال محبب.

ولما تم تجملها وكرمت زينتها، أقبلت ثلاث بنات فى السابعة
من عمرهن، وتقدمن منها وركعن أمامها ولثن أطراف ثوبها؛
ذهبت اثنتان ثم حملتا طرفى الشوب، وسارت الثالثة أمامها تحمل على
راحتيها طاستين من فضة، انطلقت منهما رائحة المسك تعبق فى أرجاء
المكان، وتعقد على رأسها غمامة بيضاء، ثم انطلقن بها حتى أقبلن

على باب كبير ما إن وقفن أمامه حتى رفعت أسجافه الوردية ، وفتح على بهو آخر فسيح الأرجاء كل ما فيه أبيض كالعروس . فرشت أرضه بأزهار النرجس ، ورصعت جوانبه بأزهار الياسمين ، ووقفت على جانبيه فتيات شبه عاريات كأنهن فى جمالهن وطهرهن الحور العين ، تحمل كل واحدة فى يدها مشعلا أضاء ما حوله حتى غدا المكان كقطعة من جسد الشمس إذ راحت تتلأأ فيه جسموهن البضة العارية ، وتبرق بريق النجوم على صفحة اليم القانى .

ولما تخطت عتبة البهو تتقدمها طالقة البخور الطاهر طهر ذيلها المحمول ، ركعن جميعاً أمامها يرددن نشيداً عذباً كأنه لحن السماء ، ثم وقفن منحنيات وهن يرتلن اللحن ، وابتدأن يرقصن رقصات ملائكية على نغم الأرغن الساحر الأخاذ ، وأقبلت على مكان كأنه عرش من الذهب الخالص أقيم فى نهاية البهو ، وقد جلس عليه ذلك الفتى الذى قادها إلى القصر .

رأته مثلها يرفل فى ثياب ناصعة البياض كثيابها التى كانت تحاكي رقة الياسمين الذى تخطر عليه ، ولما دنت منه انتصب واقفاً وحياتها بقبلة فى جبينها ، خضبت موسيقاها حدود الغوانى اللأى يرقصن ويرتلن النشيد . ثم أجلسها بجواره بين أنغام الموسيقى التى انبعشت كأغاريد الطير . وتبدلت الأضواء بغتة بأخرى ذات لون يميل إلى الزرقة ، والفتيات بغيرهن أقبلن عاريات وقد طرحت كل واحدة شعرها الكستنائى اللامع من الخلف على

ظهرها الأبيض المتبلور فكساه . وقد أقبلان يخطرن في حياء
وخطو منظم يوقعنه على أنغام الموسيقى ، ويحملن على أكفهن أطباقاً
من ذهب وأخرى من فضة ملاءى بشتى ألوان الطعام الذى لم تألفه
فى دنياها أبداً ، ولما انتظمن أمامها أخذت كل واحدة تتقدم منها
على حدة ، وتنحنى أمامها ، ثم تمد لها ذراعها المتبلورتين فتتناول من
أطيب الطعام ما تشتهى . فلما أكلت وامتألت معدتها رنت إلى
صاحبها جذلة مبتسمة ، فرنا إليها مفترأ عن ثغر شبيه بالؤلؤ
المنضود وقال :

— أشبعت ؟

فقالت وقد انتصبت ضاحكة ، ثم انثنت خجلة ، ثم أقبلت طيبة :

— إنك ملك كريم !

فقال وهو يفتح لها ذراعيه ويقدم إليها قلبه :

— إنى خادمك الأمين .

فرنت إليه طويلاً ، ثم ردت الطرف منكسرة الهدب ، مسبلة
العينين . .

وعلى حين بغتة صدحت الموسيقى بلحن جديد خضب وجنتيها ،
وهى تتلاشى فى أحضانه ، وتسبح معه فى قبلة عميقة .

* * *

وفى الصباح ، بينما كان الحاج برعى مقبلاً على حانوته مع الفجر ،
يسعل سعالاً مصدوراً ، ويلقى بصقاته ذات اليمين وذات الشمال ، رأى

قاطمة ما زالت في مكانها من الرصيف كما غادرها منذ أول الليل ،
حاملة رأسها الثقيل المتعب على فخذيها العاريتين المقرورتين ، وقد
أفسحت بجواره مكاناً لذراعها الهزيلة المرتعشة التي بسطتها في
الظلام تسائل أشباحه ، فأخذته الشفقة ، وبعد أن فكر قليلاً أراد
أن يكفر عن فعلته ، فناداها ولسكنها لم تجب ، فعاود النداء ولسكنها
كانت جثة هامدة :

لقد كانت روحها هائلة في رياض السماء ...

أما جسدها فكان جيفة ملقاة في الأرض ...

الشيء

لحق به الليل وهو في طريقه إلى القرية، يسير على مهل مقروراً
بينتفض، يحمل جسده المنهوك الخائر حيناً على ساقين هزيلتين
لا يكاد يعرف لهما لوناً من فرط ما ألم بهما من هزال، وحيناً على
عصا من السنط ضخمة طويلة هي كل ما ادخر في دنياه، وكل
ما واثق في شيخوخته المريرة القاسية التي عذرها في مرارتها
وقساوتها، وفي حملها هذا الشقيل الممض الذي ألقته به على كاهله
دون رحمة أو شفقة. عذرها في ذلك أنها لم تباغته على غير انتظار،
ولم تفجعه في قواه وتحيله إلى شبه آدمى عفواً، بل مهدت لمقدمها
بسته وثمانين عاماً قضاها في القرية ينبش بيديه عن رزقه في الحقل
كما تنبش الدجاجة عن رزقها في الأرض.

ولما أنهكه السير وأحس بالجوع يتآمر وشيخوخته على قواه
المكدودة، مد أنامله المترهلة ذات الأظافر الطويلة المعوجة، وفتح
بها عينييه كعادته كلما أراد أن يرى، ومد بصره القصير إلى الأفق
العريض المترامي، ولكنه لما لم ير شيئاً حتى ولا موضع قدميه، عرف
أن الليل قد لحق به، كما عرف أن له سبع ساعات يسير على
قدميه في طريق وعرشائك لا يستقيم إلا ليلتوى، ولا يلتوى إلا
ليسائر شاطئ التربة المنسابة في المزارع، وهنا توقف عن السير،
وراح يتلفت حوله، وكلما همت قواه أن تخونه وأحس أنه سيسقط،
كان يدفع عن جسده هذه الخيانة بأن يحمل صدره المكدود فوق

ذراعيه على العصا ويظل كذلك حيناً ، ولما لم يجد في نفسه قوة على متابعة السير ، تحسس عصاه وجانب الطريق وشارف التربة بحيث يستطيع أن يعقب من مائها إذا أراد . واطمان إلى وقفته فتذكر أن في جيبه كسرة من الخبز ، فتمسكها بأنامله المرتعشة ، فإذا بها خشنة جافة لا يقوى على قضمها بشفتيه المتهدلتين اللتين استعاض بهما عن أسنانه المفقودة ، وكانت نفسه قد عافت الخبز الأسود المبتل في الماء البارد ، فأعادها ثانية تهتز بين أنامله المرتعشة ، ودسها في جيبه وهو يهمهم بعبارات غير مفهومة أو مسموعة . وهم أن يخرج يده ، ولكنهم شعر بأنامله المقرورة تصطدم بجسم صلب في جيبه ، ما أن تحسسه وتعرف عليه حتى اربدت ملامحه ، وتقلصت أساريره « وبرقت عيناه بريقاً مرعباً لو أبصره عابر لارتعدت منه فرائصه وأوجس خيفه .

وأحس على الأثر بشيء يشبه الحصى يخنو أعصابه ، ويلهب جوارحه ويحيلها إلى شبه رماد ، فرجع بظهره إلى الوراء ، واستند إلى جذع شجرة كبير ألقى به القدر خلف ظهره على حافة التربة . ومن ثم أقفل عينيه ، واستسلم إلى نعاس مضطرب متقطع .

بيد أنه لم يلبث طويلاً في إغفائه هذه ، حتى رأى خياله يرجع به إلى شهر مضى ، إلى اللحظة التي سمع فيها ذلك النبأ السار الذي جدد آماله ، وبدد آلامه ، وجعله يستبشر بالخير العميم . فقد سمع عن طريق الصدفة مروان — عامل تليفون القرية —

يقراً في «الجرنال» ، نبأ اجتماع لجنة الاستقبال في المدينة ، لتضع برنامج زيارة الباشا إليها، تلك الزيارة التي تنتظرها المدينة بصبر نافذ، وقلب واجف ، وفؤاد قد برحه الشوق تبريحاً . .

«إذن فالباشا بنفسه سيزور المدينة يادرويش .. وإذن يمكنك أن تراه . يمكنك أن تجلس إليه . وتبشه شكواك .. يمكنك أكثر من ذلك .. يمكنك أن تطبع على جبينه قبلك الخالصة التي كثيراً ما طبعتها على شفثيه وهو طفل يلعب في حراستك ، ويلهو بين ذراعيك حتى ينام على صدرك هذا المكدود الممرض فتحملة إلى مخدعه الذي تظل قائماً على بابه حتى الصباح ، فتعد له «الفيتون» وتذهب به إلى المدرسة في المدينة ، والتي كثيراً ما طبعتها على جبينه وهو يافع ينساب بجوارك في المزارع ، ويعدو وأنت تلهث خلفه إعياء ، تحمل له حيناً بندقيته ، وحيناً مظلمته ، وأحياناً سره الذي كان لا يأتمن عليه سواك . .

ولكن أكننت تطمع في هذه الزيارة يادرويش ؟ .. أكننت تطمع في أنك ستلقاه بعد أن فرقت النظم بينكما ، فذهب هو في طريق السادة يشكو التخمة ، وذهبت أنت في طريق العبيد تنام على بطنك كلها عضك الجوع . . أليس غاية ما كانت تصبو إليه نفسك أن يبلغه صوتك فيرد إليك رمقك ، وإلا لما كتبت له الرسالة تلو الرسالة غير عابئ بما تلقى من أذى ، وبما تحتل من هوان ، وبما تتجرع من غصص التسول وأنت تستجدي الناس ثمن طابع البريد

ثم عدت فأقلعت عن الكتابة عندما علمت أن للفقراء رائحة كريهة
تتلازم حتى رسائلهم ، والسعاة تأبى أن تقدم للساده شيئاً كريهاً ..
إذن فالله قد من عليك فعلاً بهذه الزيارة من حيث لا تحتسب ،
وعرضك عن كل هذا الذى رأيت . ومن يدري ربما أن الله لم
يكتبها للمدينة إلا لغرض يبغي من خلفه إسعادك أنت يادرويش ،
وانفرت أساريه عن ابتسامة حلوة أضاءت جبينه المتغصن ،
وأعادت البشر إلى وجهه المترهل ، ومن ثم راح يعد ليوم الزيارة
ويعمل له ألف حساب ، وقبل الموعد بيومين توكل على الله وانساب
فى الطريق الوعر الذى لا يستقيم إلا ليلتوى ، ولا يلتوى إلا
ليستقيم ، تتقدمه عصا السنط الضخمة الطويلة ، وكأنها الأمل يهدد
قلبه ، وينير عينيه ، ويعيد قواه إلى ما كانت عليه قبل الثلاثين .
وقضى ليلته الثانية كما قضى ليلته الأولى فى الطريق ، طوراً
يفترش الأرض ، وطوراً يفترش عباءته الصوفية الخشنة الرثة ، وفى
الصباح الثانى كان النور قد سبقه إلى المدينة ، فلاح له من بعيد
ترفل فى بهجتها ، وتفتر عن ثغر بسام يملأه الزهو بطلعه الزائر العظيم .
واستطاع عم درويش أن يرى ببصره القصير الأعلام تحفق فى
الهواء ، والبنود تتألق فى السماء ، والثريات تتوج مداخل المدينة
وقصورها ، فشعر بشيء جميل يشبه اللذة والفخر ينسم جوارحه ،
ويهدد قلبه ووجدانه ، ويعيد إلى ثغره تلك الابتسامة التى لم يألها
من زمن بعيد !

أليس كل هذا الذى يرى من أجل سيده . من أجل ابنه .. من أجل غرسه الذى رباه وتعهده ؟!

واندفع إلى المدينة مزهواً خوراً، ولكنه ما أن اخترق بعض شوارعها وأشرف على ميدانها الرحب الفسيح، حتى رأى جموع الناس المتراسة تتدافع كأنها الموج الزاخر، وراها تندفع فى قوة، وتنساب فى حرارة، يتقدمها هتافها الذى يشق عنان السماء، ويطن على صوت الموسيقى، ودوى البارود الذى كان يتفجر من كل ناحية معلناً مقدم الباشا العظيم . وبوغت الشيخ بكل هذا الذى رأى ففسى كل شىء إلا موجة الفرحة التى غمرته، وصرفته إلى نزعة صوفية حارة أخرجته عن طورها، فراح يلف على قدميه ملوحاً بعصاه فى الفضاء، مردداً بسرعة وفى غير انقطاع .. الله أكبر .. الله أكبر .. الله أكبر... إلى أن خارت قواه وسقط على الأرض، وكل شىء فيه يضحك حتى عصاه السنط الطويلة، وحتى الجرح الذى أحدثه بجبينه سقطوه بين الناس من هول الزحام .

بيد أن كل هذا تحول بعد قليل إلى حسرة مميته، ويأس قاتل، وذلك عند ما أيقن الشيخ أن المستحيل هو أن يبلغ مكان الباشا، حتى ولو استعان على ذلك بفنون السحر وأفانين السحرة . ولما تجسم لخطاره هذا الوهم البغيض، أحس بمرارة الخيبة تكاد تذهب بقواه وتأتى على تلك الذبالة الباقية فى عينيه، فهمهمت شفاته، ورأت عيناه، ومن ثم أجهدش باكياً .

وكان السماء كانت أكرم من أن ترى الشيخ يبكي ، فهمست
في أذنه ببعض كلمات ، ما إن استوعبها حتى تناول عصاه ، وجفف
دموعه ، وانطلق يركض وقد عاد البشر إلى محياه كما عادت الحياة
تدب في أوصاله ، وماهى إلا دقائق معدودات حتى كان الشيخ خارج
المدينة ، ينتظر رجعة الموكب بالباشا ، فيستوقفه بأن يلتقي بجسده
الخائر المنهوك أمام سيارته .

وقد حقق القدر له أمنيته ، فما إن أقبل العصر حتى أقبل معه الباشا
عائداً ترعاه السلامة في عودته ، وما إن أبصر عم درويش بسيارته
الفخمة التي زانتها الورود من الجانبين مقبلة تهادى ، حتى لمعت عيناه ،
ودق بعصاه ، وألقى بجسده أمامها إلقاء . فتوقفت السيارة عن
السير ، وهم الناس أن يطبقوا على الشيخ ويقطعوه إرباً ويقصوه
إقصاء ، لأنهم ظنوا به الظنون ، إلا أن الباشا أشار بيده قائلاً :
— اتركوه . إني أعرفه . . . إنه درويش .

وانحنى درويش على يد السيد يقبلها لاهثاً متهللاً ، يردد من
فرط فرحته :

— أنا درويش . . أنا عمك درويش . . أنا أبوك درويش .
ثم رفع رأسه ليقول له شيئاً ، ليقول له سرّاً ، ولكن الباشا
كان قد دس في يده شيئاً ، وأوماً إلى السائق فانطلقت السيارة في طريقها .
وضاقت الدنيا بالشيخ ، ولكن يده كانت قد أطبقت على ذلك
الشيء الثمين الذي ظفر به ، وظل كذلك حيناً ، ثم استطاع بعد جهد

أن يقرب راحته المرتعشة من عينيه المقفلتين .
وما إن تبين ما بيده حتى تقلصت أساريره ، وجحظت عيناه ،
وبرقت بريقا مرعبا اضطرب له جسده اضطرابا ، واهتز قلبه هزة
عنيفة ، استيقظ على أثرها الشيخ من إغفائه الطويلة على حافة التربة ،
فألقي أنامله ما تزال قابضة على ذلك الجسم الصلب الذي أحس به
وهو يعيد إلى جيبه كسرة الخبز السوداء الجافة ، فأخرجه في
هدوء .. وقلبه في يده مبتسما ... وتفرس فيه ضاحكا ... ثم مد يده
وألقى بالخمسة القروش في التربة .

كانت الموسيقى تصدح حينما أقبلت الأميرة تتمايل في وشيها
وحلاها ، تسبقها رائحة المسك والطيب ، ويتقدمها أريج العطر
الفواح المنبعث من أعطافها السكرى المترنحة ، وشعرها الكستنائى
اللامع ، الذى تركته فى أمان يلهو على ظهرها المتبلور العارى ،
فاستهوته أما كن البروز فيه وأغوته حتى تطاول على القمم العالية
فى الجسد الفارع .

وكانت تسير ومن حولها ست وصيفات أبكار جميلات ، كأنهن
الخور العين يتثنين فى الخمل ، ويتمايلن فى الوشى على أنغام اللحن
المعزوف ، حتى لتخالهن من لين خطاهن وتسكسر أعطافهن ، عرائس
ثمالات من حر العناق ، تعبات من طول السهر .

وأقبلت الأميرة على البهو الفسيح المطل على حديقة القصر
الغناء المترامية ، ووقفت تتلفت حوالها وتمعن فى كل ما ترى ،
وتصغى إلى كل ما تسمع . تصغى إلى اللحن المعزوف الذى توقع عليه
الاطيار شدوها وترجمه أنغامها ، وهى فى وكناتها على أغصان
الزنايق ومتفرعات البنفسج ؛ وتمعن فى الطبيعة الساجية التى كشفت
عن جمالها قبيل الغروب فبدت مواطن الفتنة فيها أخاذة خلافة ،
حتى خلبت الأصيل نفسه ، فانساب نضاراً خالصاً ينسكب على
أفواف الزهر الغافى المستسلم لعبت النسيم العليل .

وقفت تمعن فى كل هذا لعله يروح عن نفسها بعض الشيء ،

ويعيدنها ولو قليلا إلى سيرتها الأولى من البهجة والرضا ، ويجعلها
تعثر ولو صدفة على مرحها الذى كان يطغى على طلعتها المشرقة
نوراً ينعكس على عين رائيها ، كما تنعكس أضواء الشمس على المرأة
المجلوة الصافية .

ولكنها لم تجد إلى كل ذلك سبيلا . ولما لم تؤثر فيها هذه
المناظر كلها ، أو فى نفسها المنظرية على تفكيرها المير الذى انتابها من
يوم أن تربعت على قصرها المنيف الفسيح الجنبات ، قفلت راجعة
مغمضة العينين فى سهوم كسر نظراتهما ، وأسبل هديهما الطويلين
على خدين بلون الورد .

وأخذت تنقل الخطى نقلا ومن حولها الوصيفات الست
ينظرن إليها أسفات ، ثم إلى بعضهن ويتحدثن صامتات ، حتى أقبلت
على إحدى غرف القصر ، وكانت غرفة تزيين الأميرة - فنظرت
إليهن نظرة عجلى ، انصرفن على أثرها ساهمات ممعنات فى الصمت - وقبل
أن يتلاشين من أمامها ، أقبلت أخريات أربع ، تحمل كل واحدة
منهن شمعة كبيرة تضئ ما حولها ، ثم ركن أمامها فى خشوع ،
وهن عاريات إلا من غلائل هفهاقة رقيقة ، وشعر كالليل حجب
من الخلف كل ما بدا عارياً من الجسد ، وانساب من الأمام متهدلا
على الصدر ومتفرعاً خصلا من بعد الشدين . ثم تناولن يدي
الأميرة وتخطين بها عتبة الغرفة وأسدلن ستارها المختلفة ، وقربن
من أرائكها المبتوثة ، بعد أن رددن بابها وأحكمن رتاجه . ومن ثم

جُردن الأميرة من ثيابها ، وأخذن يدلكن الجسد العارى بخالص المسك والطيب ، ويدهن القيد الممشوق بسائل العطر المصفى وألوان المساحيق المجلوبة من بلاد الهند .

وكملت زينتها ، وبدأ رواؤها ينير ما حوله كأنما هي شمعة خامسة ارتدت ثوباً وردياً من الحرير اللفهاف ، بلون الوردية التى قطفتها وهي فى الحديقة . وعقصن لها شعرها على طريقة جديدة أضفت على الوجه البسام إشراقاً نورانياً ، ومعانى أخاذة للجمال الخارق .

فالجبين الوضاء يتألاً وتنعكس أضواؤه حبيبات وامضة على الخد المتورد فتزيده التهاباً ، والعيون الكحيلة تترى رنواتها الخاطفة من تحت طرف سقيم منكسر ، ومن وراء أهداب طويلة مسبلة على جفنين كأنهما السيف ، أو كأنهما الوهن ، أو كأنهما الدنيا بأسرها . والشفاه القرمزية تبدو لك ، وكأنها ذاهلة قد رنحها الشوق للقبل ، فتلوح من بعيد كقاب وردة حمراء ذابلة فى باقة منسقة من الزنابق .

يحمل كل هذا جيد مشرب أتلع ، كأنه فى مرمريته الناصعة ، وغفواته السكرى ، يغريك فى خبث بالصدر العريض العارى ، والثدى الأرعن الذى لا ينى يتطلع إليك .

وسارت الأميرة بعد أن فرغت من زينتها ، وتجملت وتعطرت ، تتقدمها الشموع الأربع ، حتى بلغت بهواً رحباً فسيحاً توسطته

مائدة حافلة بشتى أنواع الطعام الشهى ، ومختلف ألوان الباقات
المذسقة التى انعكست عليها أضواء المصابيح الكبيرة ، فجعلت المائدة
وما عليها قطعة كبيرة من الماس تتلألأ فى ناظريك .

وجلست الأميرة وبدأت تأكل ، إلا أن نظرة عرضت منها
إلى شىء أمامها جعلها تغض الطرف ملتاعة ، وترد اللقمة مفكرة
محزونة ، فقد كان الشىء الذى وقع نظرها عليه هو مقعد الأمير الذى
بقى خالياً . ومع أن هذه ليست المرة الأولى التى تراه فيها خالياً ،
ولم تكن أيضاً أول مرة تتناول فيها العشاء وحدها ، إلا أنها أطرقت
هذه المرة حيناً مفكرة ، ثم رفعت رأسها المشغل بالهموم وأشارت
إلى إحدى الوصيفات وتمتمت :

— علىّ بجنان .

وكانت جنان هذه هى كبيرة الوصيفات ، التى يتحتم عليها أن
تلازم الأمير حاضراً ، وتتقصى أخباره غائباً ، ولما جرى بها .
ومثلت أمام مولاتها فى خشوع ، نظرت إليها الأميرة ثم قالت :

— أين الأمير ؟

— فى دار الخلافة .

— وماذا يعمل ؟

— مجتمعاً بقواد الجيش وأرباب البلاد .

— وفيم يتشاورون ؟

— فى شئون الخلافة وتحصين الحدود ومحاربة العدو .

فرنت إليها الأميرة واستدارت متممة : « شئون الخلافة ،
تحصين الحدود ، محاربة العدو ، أليس لكل هذا من آخر ؟ »
وصمتت ثم عادت تقول :

— ومتى تناول عشاءه ليلة البارحة ؟

— في الواحدة صباحاً يا مولاتي .

ففغرت فاهها ، وأومضت عينها وقالت ، وهي تديم النظر
في عيني جنان :

— ومتى أوى إلى مخدعه إذن ؟

— قبيل الفجر بدقائق .

فأشاحت بوجهها ملتاعة وقالت :

— وفي السادسة صباحاً كان مستيقظاً ، أليس كذلك ؟

— أجل يا مولاتي .

وعاودت الأميرة إطرافتها اليائسة ، وظلت كذلك حيناً ، ثم
رفعت رأسها وأشارت إلى جميع الوصيفات بالانصراف في غضب ،
ومن بينهن جنان ، وبقيت وحدها برهة ، ثم غادرت المائدة دون
أن تمسها ، وراحت تجوب في أرجاء القصر وهي مهمومة مفكرة ،
ضيقة الذرع بكل شيء ، حتى بنفسها .

وضايقتهارحابة القصر ، الذي تمثل لها سجنًا يكاد يخنقها ، ويتردى
فيه جسدها الغض البض الفتي الذي لم يخلق للوحدة ولا للانشغال
عنه — بشئون الخلافة وتحصين الحدود ومحاربة العدو — فذهبت

إلى النافذة ، وحسرت سترها الحريرى المسترخى وارتفعت عليها ،
 فطالعتها الحديقة الغناء المترامية ، وقد لفها الليل بكسائه الداكن
 الأسود ، فغدت والأزهار تتراى فيها بيضاء ناصعة ، أشبه
 بالصفحة الصافية . تتلأأ فيها النجوم وسط ليل بهيم داج . وصادف
 هذا المنظر هوى فى نفس الأميرة ، فراحت تتمعن فيه ، وتمد
 بصرها إليه مدأ فى الظلام ، وتجوب به فى أنحاء الحديقة ، وتقطع به
 مسافات الشاسعة كأنما تبحث فيها عن شيء . وبينهاى كذلك ، لمحت عن
 بعد شعاعاً ضئيلاً ينبعث من سراج خافت يتأرجح نوره ، وتنازعه
 البقاء نسمة عابرة تعبث به . ولكن نظرها الذى اعتاد التحليق فى
 أجواء الآمال البعيدة الزاهية ، وعلمه القلب الملتاع المتشوف
 سرعة الركض خلف السراب القائم بين القمم المتصدعة ، جعلها
 ترى فى وضوح كل ما ينعكس عليه شعاع السراج الشاحب الأصفر :
 رأت رجلاً عرفت فيما بعد أنه خطاب اتخذ من هذا المكان من
 نور الحديقة المقابل للصحراء مأوى له ولزوجه ، بعد أن أقام به
 عشاً من القش جمع أعواده من هنا وهناك ، كما يجمع العصفور
 الغريب أعواد عشه ويقيمه بين الأغصان ، ورأته فى ثيابه الممزقة ،
 وزيه المغبر ، يجلس إلى زوجه التى كانت قد شدت على خصرها ،
 وراحت ترقص رقصاً مغرباً أخذاً توقعه على أنغام (الدف) الذى
 يضرب زوجها عليه ، ورأتها كلما تضاعف إعجاب زوجها برقصتها
 ضاعفت من جهدها فى الرقص ، وكلما تعبت وراحت تتصبب عرقاً

ارتمت على صدره لتستمد من أحضانه قوتها ، ولتستعيد من بين شفثيه مرحها ومرونتها ، ثم ترجع فتعاود الرقص على دقات (الدف) وهي فرحة مرحة ، تلف على نفسها كالعصفور الغرد .

ثم رأتها بعد أن خلصت هي من رقصها ، وخلص هو من توقيعه ، تنظر إليه ثم تفتح له ذراعها ، فتلقفها أحضانه ، ومن ثم ناما في العراء لا يسترهما سوى غطاء من الخيش لا يختلف لونه المغبر عن لون الأرض التي ناما عليها .

رأت الأميرة هذا المنظر فتأملت وأمعنت فيه ، وراحت تنقل بصرها بين العش القائم في العراء الذي ناما على بابه ، والأرض الفضاء التي اقترشاها ، فلمست السعادة التي ترفرف على الخطاب وزوجه ، واستهواها ذلك الثوب الماهل الأسود الذي ترتديه الزوجة السعيدة ، فراحت تمعن فيه وتقارن بينه وبين الثوب الوردى المرصع بخالص الجوهر والفضة الذي ترتديه ، ولم يقطع عليها هذه التأملات سوى دمة حارة انفردت من عينيها فجأة ، وأحسست بها تنساب على الخد الأسيل ساخنة حامية ، فاهتز لها جسدها الذي راح يتدفق في النافذة ، والذي على أثر اضطرابه العنيف استيقظت من نومها (الثرى) ابنة (معن بن زائدة) ، التي كانت مضرب المثل في الجمال في عصرها . فألفت نفسها لا تزال نائمة على بساط من الصوف الخشن ، تعودت النوم عليه منذ نعومة أظافرها .

ولم تمكث طويلاً في نومها بل فتحت عينيها ، وانطلقت تركض إلى مخدع أبيها الذي كان قائماً يصلي ، فانتظرت به واجفة ترتعد حتى خلص من صلاته ، فارتمت على صدره باكية منتحبة هاتفة :
— أبي ، لا تزوجني من الخليفة أبي جعفر المنصور .

قالت ذلك ونظرت إليه ، وحدثت فيه ، وفتحت أذنيها لتسمع قوله ، ولكنها لم تسمع إلا دوى لطمة قوية كادت تدمي وجهها ، فارتدت وجلة خائفة تترقب .

ومر أسبوع أعلنت بعده خطيرة (الثريا) للخليفة أبي جعفر المنصور ، فانهاالت التهانى على أبيها القائد المحظوظ الذى حظى بالشرف العظيم .

و ذات ليلة ، بينما كان الخليفة فى القصر يتشاور مع قواده ومن بينهم القائد معن بن زائدة فى شئون الخلافة ، وتحصين الحدود ، ومحاربة العدو ، كانت الثريا تضرب فى الصحراء مع أعرابى يرعى الإبل ، هو عامر بن الهيثم ، لتعقد عليه .

كان الخمار يسير في الطريق الملتوى بين الحقول والمزارع
المترامية متمهلاً ، على غير العادة التي ألفها منذ خمس عشرة سنة
اعتاد أن يقطع فيها نفس الطريق كل يوم في خمس ساعات ذهاباً ،
ثم يعود فيقطعها ثانية في نفس اليوم في خمس ساعات أخرى .

وكان تمهله في السير لآعن جهد أضناه، ولاعن شيخوخة وكبر
سن، ولا عن طول المسافة ، ولكن لأنه أحس أن صاحبه في هذا
اليوم على غير عادته . فما إن امتطاه هذا الصباح حتى ألقى بجسده
عليه إلقاء، كأنه جثة هامدة ألقيت على ظهره . وكأن الخمار أحس
فعلاً بما يعاينيه صاحبه من ألم مرير في هذا اليوم ، فتألم هو أيضاً،
وراح يخب به في الطريق الملتوى على مهل، وقد أمال عنقه الطويل
إلى أسفل، وأدنى رأسه الضخم من الأرض حتى كاد يصفعه بحافريه،
ونكس أذنيه الطويلتين حتى غدتا على صفحتي الوجه الطويل
كجناحي طائر جريح . وكلما قابله إنسان أو حيوان مثله تجنبه حتى
يمر به في هدوء ، وحتى لا يقلق الإنسان المتكوم عليه كحزمة من
القش، ترسل شمس الصيف الحارة أشعتها عليها كأنها شواظ من نار،
وكلما خلا بنفسه في الطريق ازداد ألمه ، لا على مصيره المجهول إن
تركه هذا الصاحب الأمين، ولكن على الخمسة عشر عاماً التي اقتناه
فيها هذا الصاحب، وعاشره فيها معاشرة الصديق للصديق، لم يضره
حرارة، ولم يجهد يوماً عن قصد، ولم ييخل عليه فيها بتبن أو يظن

عليه بعليقه ، وكلها تخيل هذا وأحس بحالة صاحبه التي يعانها اليوم وهو ، على ظهره ، تساقط عرقه وتصبب على حوافره ، وهزلت خطواته حتى كادت تتوقف ، إلى أن باغ أول قرية فاخرقها دون أن يغير شيئاً من خطواته أو يرفع رأسه ، حتى وقف عند مكان اعتاد أن يقف فيه في هذه اللحظة من كل يوم . وأقبلت إحدى النساء وهي تنادى بصوت مبجوح : « .. عم جمعه .. عم جمعه .. » ولكن عم جمعه في هذا اليوم لم يسمع النداء ، لذلك لم يلتفت كالعادة ولم يجب ، وأدرك الحمار أن صاحبه لم يسمع ، وعز عليه أن يظن شيئاً بعم جمعه ، فاهتز في وقفته كأنه يريد أن ينفض عنه غباره . واهتز معه عم جمعه بجسده المقلور ، فاستيقظ وحاول أن يفتح عينيه المحمرتين ولكنهما لم يفتحا ، فخاص هديهما المتآكلين من سائل لزج ، تجمد عليهما وعلى جانبي الأنف الأقي المستسلم ، على الوجه المغضن ، لعبث الحياه ، فأدرك أنه باغ أول قرية ، فرفع رأسه الثقيل الذي لفحته حرارة الحمى المتأججة فيه ، وأقامه على عنق مترهل معروق ارتكز على صدر خائر ، كأنه صندوق من صناديق الحلوى الفارغه عبث النمل بجوفه ، فغدت أنفاسه تتردد فيه كأنها حشرة طائر مذبح ، ثم رفع ذراعاً مرتعشة ، ومد يداً مقرورة الأنامل ، وأخرج من (خرج) بجانبه على الحمار عدة خطابات أدناها من عينيه المحمرتين ، وراح يتم بصوت مبجوح ، وشفقتين غليظتين واجفتين : « جواب لمبروكه الشنواني .. وجواب حميده الزعبلوى

وجواب .. ل .. ل .. « ولما لم يتمكن من رؤية خط القلم الرصاص الباهت الذى كتب به المظروف ، أدنى الجواب من عينيه . ومكث لحظة تتم بعدها : « للحسيب النسيب الفاضل الشيخ عيسوى البردان عربجى حنطور حضرة عمدة الناحية » وناول المرأة هذا الخطاب الثالث ، ومد أنامله إلى حبل رفيع بجانبه انساب فى عدة حلقات نحاسية على فتحة الخرج ، فشده فانقفل الخرج ثانية . وهمت المرأة أن تسأله عن خطاب لها باسم ستيته العجوانى ، ولكن الحمار كان قد أحس بوسوسة الحلقات فواصل سيره دون أن يتكلف صاحبه مؤونة الإصغاء إلى ثرثرة أهل الريف ، التى إن كان قد احتملها خمسة عشر عاماً فهو لن يقوى على احتمالها اليوم . وعاد الحمار يواصل سيره منكس الرأس ، وعاد عم جمعه إلى إطرافته فألقى برأسه الملتهب على صدره الخائر الذى راح يهتز بالرأس اهتزازاً يوقعه الحمار على خطواته البطيئة ، وترجمه الفتلات الأربع التى أبقاها القدر من زرطربوشه معلقة بخيط رفيع كذلك الخيط الذى تتعلق به آماله فى دنياه الزاهية . ومن ثم أغمض عينيه ، ولكن على بيت مهدم فى أقصى المارينة تعج ساحته الضيقة ذات الجوانب المتآكلة والسقف العارى بسبعة أولاد ، خلفهم الفقرا أشباه عرايا يتطلعون إلى السماء ولا يرتجون من رحمتها أكثر من خرقة ولو بالية تقيهم عواذى المذلة والأذى ، وخلفهم الجوع أشباه آدميين منهم من يتعزى عن آدميته بالدموع ، ومنهم من يحول مجرى هذه الدموع

إلى القلب الذابل عساها تروى غلته ، وعساها بذلك لا تزيد في
 أسى الأم القابعة في وسطهم تتحسر أكثر ما تتحسر على طفلها
 الحديثى الولادة ، وهى تراهما أمامها كالقطط الضريبة يزحفان على
 أربع ، يبحثان عن ثديها الذى أخفته عنهما لاضنائه ، ولكن شفقة
 يشغريهما الطويين أن يتعبا من رضاعة ثدى امتص البؤس لبنه ،
 وخلفه كالخرقة الممزقة التى تستر بها صدرها . ومع ذلك فهى تنظر
 إليهم جميعاً ، لا إليهما ، وتشفق عليهما جميعاً ولا تملك إلا أن تحفف
 عبراتها وتجلس معهم فى المكان المعهود من الساحة الضيقة ، بحيث
 تكون وجوههم مقابلة لمدخل الدار ، حتى يتمكنوا من رؤية أبيهم
 وهو يفتح عليهم الباب فى أى وقت من الليل أو النهار ، ويده تلك
 الأربعة الستة ، وقطع الجنب القريش الثلاث . وما أن يبصروا به
 حتى يهرعوا إليه ويلتفوا حوله ، ولا ينتظرون حتى يضع أمامهم
 قوتهم اليومى الذى يمضى الشهر ولا ينقص عدده أوزيد . وتمضى
 الشهور ولا يتبدل لونه أو يتغير ، ومع ذلك يتخاطفونه ويتهافتون
 عليه تهافت الدجاجات الجائعة على حبات الحنطة . ثم يأوون إلى
 مضاجعهم فى غرفة لا تقل إظلاماً وتهتماً عن غرفة الحمار المجاورة ،
 التى اتخذ عم جمعه منامته فيها بجانب حماره ، يقضى الليل بجواره ينظر
 إليه وهو يأكل ، ويتخيل أولاده وهم نيام فى الغرفة المجاورة ، ومنهم
 من استطاع أن يظفر بكسرة خبز كاملة فأكلها ونام مطمئناً ، ومنهم
 من فجعه أخوه فى كسرته ، فبات على الطوى وقد أغمد عينيه
 ليصغى لنباح أحشائه الجائعة ، فلا يسمعه وهو بجانب الحمار إلا أن

يغمض عينيه هو الآخر ، ولكن على دموع بلورتها حرقه العوز
ومذلة الفاقة ، حتى الخامسة صباحاً ، فيتسلسل بجماره إلى مكتب البريد
ليوزع على الناس أخبار الأهل وأنباء الأصدقاء .

ولكنه ليلة البارحة لم ينم بجانب حمارة كالمعتاد ، لم ير حمارة
وهو يأكل ، ولم يتخيل أولاده إلا وكلهم أيقاظ على الطوى
ينظرون إلى باب الدار ينتظرون ولا من يجيب ولا من غائث ، فقد
كانت ليلة البارحة آخر ليلة في عمر الجنيهاث الثلاثة التي يقبضها
كل شهر . وكانت ليلة البارحة أول الليالي التي بدأ فيها الاستجداء
وعجز فيها عن الاستدانة وعن العشرة القروش التي يبتاع بها الأرغفة
الستة وقطع الجبن الثلاث ، وهو لا يقوى على الذهاب إلى الدار بيد
فارغة ، لأنه لا يستطيع أن يرى أولاده وقد هرعوا إليه والتفوا
حوله ولا يقدم إليهم إلا النظرات والأنات والدموع ، فهذه وإن
كانت تهدد الخاطر أحياناً فهي لا تطفئ حرقه الظأ أبداً ، وإن كانت
تريح الفؤاد بعض الشيء فهي لا تسكت مواء القطط الجائعة .
ولذلك آثر أن يبيت مع حمارة على الرصيف بجوار هندأوى خفير
مكتب البريد ، الذي كان يشكو إليه هو الآخر تعسر زوجه
في الولادة ، وغطرسة القابلة التي أبت أن تذهب إليها إلا بعد أن
تأخذ عشرين قرشاً ، وهو عاجز عن قرش واحد يبتاع
به شيئاً يتبلغ به ، إلى أن أقبل الصبح فانقطع حديثهما ، وانصرف عم
جمعة ببيده وركب حمارة ، ويمم وجهه شطر القرى والمزارع كأن لم
يحدث في الدنيا شيء . وكأن أبا من الآباء لم يقض ليلته على

وصيف من الأرصفة، يشكو إلى الله حرقة الظمأ والأنهار تتدفق من حوله، وكأن أما من الأمهات لم تقض الليل ساهرة حول أطفالها الجياع تباد لهم جوعاً بجوع، وتبادل زوجها الخائب دموعاً بدموع، وكأنها لما انتصف الليل ولم يأت عرفت سر تأخره، وأنه قد عجز عن ثمن الرغيف، وعرفت أيضاً أنه لا بد من حل يخلصها من صراخ الأولاد ولو إلى حين، فذهبت إلى جارة لها تستلف منها حفنة من الدقيق تخبزها على الصبح وتسكت بها نباح الجوع، ولما عادت ألفت أحد الطفلين قدمات، وذهب إلى ربه يشكو إليه ظمأ ثدى أمه المترهل الذى لم يجد عليه بنقطة لبن واحدة من ثلاثة أيام. وانتظرت الزوجة زوجها فى الصباح عند رأس الطريق الذى يخترقه كل يوم، وأنباته أن أحد الطفلين قدمات. وانصب هذا الخبر انصباباً فى أذن الأب، وأربدت منه ملامحه، وتقلصت له أسارير وجه المجدد، وانهلح له قلبه، وثارث ثائرة الشيخوخة، فهم أن يقفز عن حماره أو يرتدبه ثانية ليودع ابنه الوداع الأخير، بيد أنه أحس بخاءه بشيء جارف هز جسده المنهوك هزاً عنيفاً، ففتح عينيه فألقى الحمار قد وقف به أمام أول تفتيش من تفتيش الباشا، قطع مساحته فى ساعة ونصف كان فيها على ظهر الحمار يستعرض حادثاً وقع له من يومين، فابتسم واسكن من نفسه.

ومد عم جمعة يده المرتعشة الهزيلة وأخرج عدة خطابات ألقى من بينها خطاباً مزخرفاً باسم الباشا، فتفرس فيه وقرب خطه

المندسق الجميل من عينيه، وما إن قرأ حروفه حرفاً حرفاً حتى خطن له خاطر ما إن تخيله وتخیل نتیجته حتى لمعت عيناه لمعاناً أضفى على وجهه المخبّر شيئاً من الهدوء الذي يبعثه الأمل الحلو.

ودس الخطاب في جيبه خلسة، وأعطى الخطابات الباقية إلى رجل اعتاد أن يأخذها منه كل يوم، وهم الخمار أن يواصل سيره ولا يكتنه وجهه يميناً، وما إن سار به بعض خطوات حتى طالعه مبنى شاهق جميل راح يتألق تحت السماء الصافية وكأنه مرآة تعكس الشمس أضواءها عليها، تحوطه حديقة غناء تنبعث منها أنسام الضحى معطرة بأريج الورد. ورأى عم جمعة قصر الباشا الجميل المزخرف بشتى الرسوم العربية القديمة، وقد لفته أشجار السرو العالية بفروعها الخضراء، فغدا القصر الأبيض في قلبها كغانية طروب ترفل في ثوب فضفاض من الحرير الأخضر، فأخذ عم جمعة يبروغة المنظر، ورهبة سور الحديقة العريض المندسق، غير أنه مع ذلك تقدم في خطوات ثقيلة متباطئة كأنفاسه، حتى أشرف على باب السور، فألقى البستانى ينسقى بين يديه باقة كبيرة سوف توضع أمام الباشا على المائدة، فحياه بصوت خنقته أنفاسه المحمومة المتدهورة من بين شفطيه المرتعشتين، وناوله خطاب الباشا ومعه ورقة صغيرة كتبت عليها بعض عبارات مقتضبة، ولكنها كانت في اقتضاها خلاصة ما في لغة الفقر من عبارات الاستجداء. وطلب من البستانى توصيلها مع الخطاب إلى سعادة الباشا مد الله في عمره وجعله ذكراً للبؤساء.

وانتقلت الورقة من البستاني إلى خادم وخادم وخادم ، ثم إلى خادمة وخادمة وخادمة ، حتى بلغت يد الباشا .
وانتظرهم جمعة بجوار السور مع حمارة ، وبعد أن طال به الوقوف أحس أن ساقيه قد خذلتاه ، وأن رأسه قد ثقل فجأة ، حتى أن عنقه قد ناء به . وأحس أنه في حاجة إلى أن يجلس ، وإلى أن يغمض عينيه ، وإلى أن يريح رأسه هذا الذي ثقل فجأة ، فاقترب وحمارة خطوة من السور ، ومن ثم جلس بجواره وقد وضع ذراعيه المرتعشتين على فخذه ، وألقى برأسه عليهما أمام الحمار الذي مده هو الآخر عنقه الطويل ناحية رأسه ، وكأنه يوشوشه أو يصغى إلى تدهور أنفاسه من بين شفثيه .

ومرت ساعات أقبل بعدها الظهر ، ومرت ساعات أقبل العصر بعدها ، وأقبات ساعة اعتاد أن يترىض فيها الباشا ، فأقبلت سيارة نخمة ، وثيرة المقاعد ، جذابة اللون ، متبلورة كالمرآة ، وما إن وقفت أمام مدخل القصر حتى أقبل الباشا يرفل في حلة لامعة بيضاء ، زان صدرها بوردة كبيرة بلون رباط رقبتة الذي حلاه بدبوس من الماس الثمين . وأقبل على السيارة تسبقه رائحة العطر الجميل ، وهم أن يدخلها ، ولكنه أبصر بعم جمعه وهو في جلسته أمام الحمار ، الذي أدنى رأسه من نخذه كما يدينها من مخللة فارغة ، فتذكر الورقة التي وصلتته مع الخطاب ، فناداه ، ولما لم يسمع عم جمعه النداء ، تقدم

السائق منه وربت على كتفيه، ولكن جسده كان قد أصيب بالصمم
هو الآخر كأذنيه.

وتأثر الباشا قليلا وركب سيارته، وأمر السائق بالسير بعد
أن أمر بدفن الجثة على نفقته، وصرف ثلاثة جنيهات لأسرته، على
أن يضم الحمار إلى حمير التفتيش.

أَلَقْتُ بِالْمَجْلَةِ الَّتِي فِي يَدِهَا جَانِبًا ، وَرَجَعْتُ بِظَهْرِهَا إِلَى الْخَلْفِ .
وَتَمَطَّتْ عَلَى الْمَقْعَدِ الْمُسْتَطِيلِ الَّذِي تَجَاسَّ عَلَيْهِ ، وَارْتَكَزَتْ بِمِرْفَقَيْهَا عَلَى
جَانِبَيْهِ ، وَمَدَّتْ سَاقَيْهَا إِلَى الْأَمَامِ فَانْحَسَرَ عَنْهُمَا طَرَفُ (الرُّوبِ)
الْأَزْرَقِ فَبَدَتَا عَارِيَيْنِ إِلَّا مِنْ جَمَاهُمَا . فَتَفَلَّرَتْ إِلَيْهِمَا طَوِيلًا ثُمَّ
قَرَبَتْ رَأْسَهَا مِنْهُمَا ، وَأَخَذَتْ تَفْحَصُهُمَا بِعُنَايَةٍ كَأَنَّهَا لَمْ تَرَهُمَا
قَبْلَ الْيَوْمِ . وَلَكِنَّهَا بَدَلُ أَنْ تَسِرَ مِنْ رَوْعَةِ اكْتِنَازِهِمَا وَدَقَّةِ
التَّفَافُهِمَا ، أَوْ بَدَلُ أَنْ يَبْهَرَهَا بَيَاضُهُمَا الْعَاجِي وَمَلَسَ بَشَرَتَهُمَا النَّاعِمَةَ .
أَلَقَتْ بِبَصَرِهَا كُلَّهُ عَلَيْهِمَا فِي أَسْف . ثُمَّ مَكَّشَتْ لِحْظَةً مَدَّتْ خِلَالَهَا
أَنَامِلَهَا الرَّقِيقَةَ وَلَمَسَتْهُمَا فِي رَفَقٍ ، ثُمَّ صَعَدَتْ مِنْ بَيْنِ صَدْرِهَا زُفْرَةٌ
أَحْسَتْ بِحَرَارَتِهَا وَهِيَ تَمُرُّ مَنَسَابَةً بَيْنَ سَاقَيْهَا .

وَدَخَلَتْ عَلَيْهَا الْخَادِمُ وَفِي يَدِهَا مَجْلَةٌ جَدِيدَةٌ غَيْرُ الَّتِي كَانَتْ فِي
يَدِهَا . فَتَنَاوَلَتْهَا مِنْهَا وَأَذْنَتْ لَهَا بِالْأَنْصِرَافِ ، وَنَظَرَتْ إِلَى الْمَجْلَةِ
وَقَلْبَتَهَا بَيْنَ يَدَيْهَا ، ثُمَّ ابْتَسَمَتْ سَاخِرَةً مِنْ نَفْسِهَا ، مُشْفِقَةً عَلَى تِلْكَ
النَّفْسِ آسِفَةٍ لَهَا ، لِأَنَّ الْمَجْلَةَ الْأُولَى ظَلَّتْ مَعَهَا طَوَالَ الْيَوْمِ وَمَعَ
ذَلِكَ لَمْ تَفْهَمْ مِنْهَا شَيْئًا ، وَلَمْ تَقْرَأْ فِيهَا سَطْرًا وَاحِدًا . ذَلِكَ لِأَنَّ
عَقْلَهَا مَا كَانَ يَلَازِمُهَا أَثْنَاءَ الْقِرَاءَةِ ، وَهُوَ لَا يَلَازِمُهَا أَبَدًا . حَتَّى
فِي سَاعَاتِ الْجَدِّ يَأْبَى إِلَّا أَنْ يَكُونَ شَارِدًا عَنْهَا ، سَابِحًا فِي مَلَكُوتِهِ
الَّذِي اخْتَارَهُ لِنَفْسِهِ ، بَاحِثًا عَنْ دُنْيَاهِ الْمَفْقُودَةِ .

وَقَامَتْ مِنْ مَقَامِهَا مُتَشَاوِلَةً تَتَمَطَّى ، وَتَمَشَّتْ بِخَطَى وَئِيدَةٍ وَسَطِ

الصالون الفخم الذى صفت على جانبيه الأرائك ، مزركشة بفاخر
الرياش والطنافس ، وأخذت تنقل قدماً عن قدم فى ثقل وببطء
وتخاذل . وكلما نقلت قدماً حز الألم فى نفسها حزاً ، حزناً على
ذلك العقل الشارد ، وأسفاً على دنياها الضائعة .

« فيم هذه الأنفاس الملتهبة التى تكاد تحرقك يا رجاء . وقد
كانت كنسمات الصباح تحمل إلى البلبل قطرات الندى معطرة
بأريج الورد ؟ »

« فيم السهد حتى تسكحت به العيون النجل ... ؟ »

« فيم الأرق حتى ذبلت الأهداب الوطف ... ؟ »

« فيم الأسمى يا رجاء ... ؟ »

« فى هذا الذى لم تذكرى يا رجاء . فى دنيا رجاء المفقودة . »

« أولم يعوضك كل هذا عنها شيئاً ... ؟ »

« هيهات أن ترضى حواء بغيرها بديلاً ! »

« إذن لماذا لم تجدى فى البحث عنها يا رجاء . ولو أنفقت فى

سبيلها الروح والجسد ... ؟ »

« أف من بابها .. إن أحدهما مشروع باعتراف الأرض

والسما ، ولمكن قد علا رتاجه الصدا ، وكفن مفتاحه بخيوط

العناكب ، وقد ظلمت ثلاث سنوات أعالجه . فلا أفلح ، أقيم

فلا يستقيم ، أراضيه فلا يرضى ، أعانقه فلا يقبلنى . أرويه

فلا يطئن نار قلبى . »

« والباب الثانى يا رجاء ... »

« إنه مستقيم الرتاج ، ميسور المعالجة ، لا يكاد يلمس حتى يفتح على مصراعيه ليستقبل كل حواء ، ويرحب بكل حواء ، ويرضى كل حواء ، ويطنىء نار كل حواء . »

« ولكن طريقه . . شائك غائر الظلمة . . حالك السواد ، كطريق القبور تماماً ، يأخذ دائماً ولا يعطى أبداً ، وأنا أريد ... »

« تريدن ماذا ... ؟ »

« أريد أن أحيأ . . أريد أن أعيش . »

وانفجرت باكية ، وارتمت على أول مقعد قابلها ، ودفنت رأسها الصغير الجميل بين ذراعيها ، واسترسلت فى بكائها بصوت خفيض لا يكاد يبلغ أذنيها ، ولم تفتن لوجودها وتفتق لنفسها إلا على صوت الطاهى وهو ينقر بيده على الباب نقرأ هيناً . . فيه خوف ، وفيه تهيب ، وفيه احترام . فالتفتت إليه مدعورة وبادرته قائلة بصوت لا يخلو من خشونة ، ولم يجرد من ازدراء :

— ماذا تريد . . ؟

— لقد أعددت المائدة يا سيدتى .

— اقترب منى . لم أسمع ما تقول . لماذا لا تقترب منى دائماً

كلما حدثتنى ؟

وحدثت فيه ، وبرقت عيناها ، واتسعت حدقتاهما ، وصوبت

شعاعهما الناري إلى عينييه . فأقبل عليها خائفاً يترقب ومثل بين يديها وقال :

— عفواً . لقد فرغت من إعداد المائدة وجئت لأنيء سيدتي ، ومن أجل هذا جئت .. وابتسمت ثم أغمضت عينيها وأشاحت بوجهها متمتمة .

— اذهب بعيداً عني .. لا أريد أن أراك .. لا أريد أن أراك . إنك أبله ، إنك مجنون .

وانصاع الخادم لأمرها ، وانصرف من حضرتها .. وتبينته فلم تجده ، فزاد حنقها عليه ، وتضاعف مقتها له .

لقد انصرف .. لقد انصرف .. إنه أبله .. إنه مجنون .

ولكن لماذا تخيفني عيناه .. لماذا يخلق بريقهما في قلبي شيئاً من الخوف .. شيئاً من الرعب .. شيئاً آخر لا أعرف له اسماً .. لا أعرف له كنها .. لماذا لا أقوى على التطلع إلى جبهته العريضة .. إلى عينييه الناريتين .. بل ولماذا يضطرب قلبي وترتعد فرائصي كلما ناولني شيئاً بيده ورأيت ساعده القوي المفتول .

— لا .. لا .. لا أطيع أن أراه .. لا أطيع أن أراه .. إن وجوده في البيت يضاعف أرقى ، يضاعف قلقي ، سأقصيه بعيداً عني .. سأقصيه بعيداً عني .. وف لا أراه أبداً بعد اليوم .. سأطرده . سأطرده .

— ومن الخير أن تطرده يار جاء .

وضغطت بأصبعها على الجرس ، فأقبلت عليها الخادم . وما إن
رأتها حتى قالت :

— أولم يأت سيدك بعد . . ؟

— لم يأت يا سيدتى .

— ومتى عاد ليلة البارحة . . ؟

— لم أره ، ولكن البواب يقول إن الساعة بلغت الثالثة
صباحاً مع أوبته .

— الثالثة صباحاً ؟ ! . وخرج الشائمة أليس كذلك ؟

— أجل يا سيدتى . .

وأطرقت متمتمة : « أيفعل الميسر كل هذا ؟ » . . ورفعت
رأسها ، وفتحت عينيها .

— أبلغى الطاهى أنه مطرود من اليوم ، قولى له ذلك ، دعيه
يذهب بعيداً عني ، لا أطيق أن أراه .

وانصرفت الخادم وبقيت وحدها ، تهمس فى صدرها همسات :
« أعرفت أن وجوده كان يشغل عليك يا رجاء ، أعرفت أنك
كنت تمقتينه ، أعرفت أنه من الخير لك طرده . .

« ولكن أى شىء كان يضايقك منه . . ؟ . . تهيبه ؟ ! . .
احترامه ؟ ! ليته لم يخف ولم يتهيب ، ليته كان يفهم ، ليته كان
جريئاً مقداماً . . لقد ذهب ،
« أجل لقد ذهب . . »

« وزوجك يا رجاء أين هو . . . إنك تكادين لا ترينه في الأسبوع مرة ، في الشهر ليلة ، عليك إذن أن توصدى الأبواب ، وتغلق النوافذ ، وألا ترى الشمس في العام مرة . حتى لا ترى الجنس الذى تتفتح له جوارحك ، ويفعل بعقلك وقلبك كل هذه الأفاعيل . . . عليك إذن يا رجاء أن . . . »

وأقبل الطاهى على الباب ونقر عليه نقرأ هيناً ، فيه خوف ، وفيه تهيّب ، وفيه احترام . وأما أن رأيته حتى بادرته :

— اقترب منى ! لم أسمع ما تقول . واقتربت خطوة . لماذا لا تقترب منى دائماً كلما حدثتني ؟ . . .

وبرقت عيناها واتسعت حدقتاهما وصوبت شعاعهما النارى إلى عينيّه .

— أحقاً سيدتى أمرت بطرد خادمها ؟

— من الذى قال ذلك . لا . . لا . . لم أطرّدك . . إننى أريدك . . .
إننى أريدك .

واقتربت منه فى خطىّ مرتعدة حتى دانت له .

— أريدك . . أريدك . . أريدك أن تذهب بعيداً عني . .

لا أريد أن أراك . . لا أريد أن أراك . . اذهب ، اذهب إلى عملك ، إنك غير مطرود .

وخرج الطاهى من حضرتها فرحاً لا اتصال عيشه ، وتبينته فلم تجده فزاد حنقها عليه ، وتضاعف مقتها له .

« لقد انصرف ، لقد انصرف ، إنه لم يفهم ، إنه أبله ، إنه مجنون .. »

وضاقت ذرعاً بجو الصالون الخانق لغلق نوافذه وأبوابه ، وضايقتها أنفاسها الحارة المتصاعدة ، حتى خشيت منها على شفيتها القمرزيتين فراحت تتلمسهما بينانها ، وتضمدهما بمندياها الصغير ، ثم ذهبت تجر ساقها جراً إلى باب الشرفة ، وفتحته على مصراعيه ، فاستقبلها الأصيل شاحباً باهتاً من فرط برودته ، وأطل عليها الليل من خلل نافذة الغرب بوجهه الأسود بارداً مقررأ يرتعش ، وتبينت السماء فإذا بها تتهياً لبكاء طويل يستحشها عليه الريح الأهوج الذي راح يرقص رقصاته العاصفة على ضوء البرق الخاطف ، ونغمات الرعد الذي يصم الآذان . وبعثت ببصرها إلى عرض الشارع فإذا به خالياً مقفراً من الناس . ولم يقع بصرها إلا على قاطرات الترام ومركبات الجياد والسيارات تمرق بسرعة جيئة وذهاباً ، تحمل الناس وقد فروا إلى دورهم هرباً من عادية الشتاء .. « إذن سيعود هو أيضاً مبكراً هذا المساء يار جاء .. وافرحتاه .. »

سوف لا يجد من يلاعبه .. إنه لن يجد من يلاعبه .. ولم لا يعود ؟ أليس رجلاً كهؤلاء الرجال . له بيت ، وله زوجة تنتظره ، وترقب أوبته بصبر نافذ ، وقلب واجف ، وجسد يلهبه العطش إلهاباً ؟ إنه سيعود . وسيقضى ليلة معي ، ومن يدري ربما ليالي ولكن هل لا بد أن تصفو السماء وتسطع الشمس ؟ ما ضرها لو ظلت

كذلك طول العمر ... إلى الأبد . . .

وراحت السماء ترسل الدمع البارد بلا شفقة ولا رحمة .
« حقاً إنه سيعود . . . سيعود . . . وسترد إليك دنياك يا رجاء »
وانفجرت أساريرها عن ابتسامة صافية عذبة ، سرت عذوبتها في
جسدها سريان الكهرباء ، فنشطته وأضاءت جوانبه بمصابيح
الأمل ، ودخلت تعدو فرحة مهللة مترنحة القلب ، مصفحة الفؤاد
واستدعت الخادم وأمرتها ! أن هيئ الحمام .

وخرجت من الحمام مستبشرة الحيا ، وضاعة الجبين ، متكسرة
الاعطاف ، لا تكاد تحمل نفسها على ساقها من فرط فرحها ولين
خطاها ، وتمهل تشنيتها . ودلفت إلى مخدعها وأحكت رتاج بابها ،
وجلست أمام المرأة وبدأت تتزين .

« إن لجسدي عليك حقاً يا رجاء . لا بد أن تزينيه هو الآخر . .
لا بد أن تزينيه ، وتدهنيه بالعطر والمساحيق .

ووقفت في المرأة عارية وانطرح شعرها الفاحم اللامع على
كتفها ونصف ظهرها ، فحجب هذا الموضع عن عيونها في المرأة .
« إنك جميلة حقاً يا رجاء . .

« انظري . . انظري إلى عينيك . إن لون أهدابهما الوطف
كلون شعرك تماماً ، لكليهما غاية ، ولكليهما وظيفة ، خلقت
أهدابك طويلة رفاقة كي تحجب سهام عيونك النارية بعض الشيء
عن الناس ، حتى لا يخرون صرعى من مجرد النظر إلى بريقتيها . .

وخلق شعرك طويلاً غزيراً هفهافاً ، ولكنه يميل إلى الظلمة .
لماذا هو كذلك يا رجاء ؟

« ليجب نصفى الأعلى عن عيون الذئب . حقاً إنهم كانوا
يلتهمونك التهاماً يا رجاء لو بديت لهم يوماً كما أنت عارية ، ولم
يقك هذا الحجاب الكشيف ،

« انظرى .. إلى جمال خديك ،

« انظرى .. إلى ثغرك .. إنه متورد .. إنه بسّام .. إنه لم
يخلق إلا للقبل . »

« انظرى .. انظرى يا رجاء .. انظرى إلى صدرك كيف هو
مستقيم الجنبات ، عريض السطح ، راقص التثنى ، لين التموجات ،
عزيز على نفسه ، حريص على غيره ، غفور بتوأميه . »
« انظرى إلى الشجرة الفينانة ، كيف تدلت ثمارها وآتت
أكلها وطاب جناها . »

« أين راعى الشجرة ؟ أين راعىها يا رجاء .. ؟ »

« ألم ير زوجك كل هذه الكنوز التى تخفيها الثياب .. ؟ »

« سأريه الليلة كل شيء .. سأقدم له هذا الجمال قرباناً على
مذبح الجسد الضامى ، سأقدم إليه بهذه الشجرة الوارفة الفينانة ،
ولكنى سأكون حريصة ، سأجعله يقطف منها كل غصن على
حدة ، ليميز بين طعم الثمار ، وهيبات للعمر أن ينقضى قبل نفاد
شدها ، سأجعله بعد أول ثمرة يعترف صراحة أن ساعة واحدة

مع زوجة جميلة وفية ، لخير من ألف شهر على مائدة خضراء .

واقتربت من المرأة بعد أن تزينت وأدامت النظر .

كل شيء قد أضاء .

« ولكن هذا الجفن ، قليلاً من الكحل يضاف إلى الزاوية .

يكمل الرواء وينفذ السحر . »

وألقت بغدائرهما إلى الورا ، وخلصت جبينها المتألىء من بعض خصلات كانت ترفرف عليه ، وانحنى برأسها الصغير على المرأة وهي تغنى بصوت شجي أغنية مضطربة التوقيع ، وبدأت في تجميل جفنها وإذا بها تراه ، ترى زوجها في المرأة مقبلاً عليها من الخلف يمشى على أطراف قدميه يتحسس الخطى تحسّساً لكي يفجأها بحلو اللقاء ، فاتحاً ذراعيه لكي يحتوى جسدها العارى في صدره ضاغطاً على نواجذه مهمماً بشفتيه ، يريد أن ينقض على ثغرها ليرتشف ما فيه من رضاب مرة واحدة ، فابتسمت من قلبها ، ولكنهما زمت شفتيهما كي لا تضحك ، وتجاهلته منشغلة بالجفن الذى اضطرب فى بنائها اضطراباً ، وتركته حتى أقبل عليها ودانها ، وكاد ثوبه يلمس جسدها ، وإذا بشفتيهما تشد شداً ، وتنفذ من بينهما ضحكة عريضة :

« إني أراك . . إني أراك ، لن تأخذنى على غرة أبداً ،

والتفتت إليه مسرعة ، وفتحت ذراعيها لتقدم إليه بضاعته ،

وترد إليه ماله ، ولكنها رأَت الباب ما زال محكم الرتاج ، لم يدخل منه أحد ولم يعبره إنسان .

وغازنها أن تسخر منها أوهامها على هذا الوضع السخيف ، ولكنها لم تغضب .

إن هذه دلائل طلعتة ، هذه تباشير أوبته ، أبداً لم تسخر منها أوهامها .

— أليس يمثل الخيال حقائق الأشياء قبل وجودها ؟ أليس يرى القلب قبل العين أحياناً ، وذهبت إلى الدولاب وفتحته ، فطالعتها عدة (فساتين) علقت من أعناقها على مشاجبها ، وألقت عليها نظرة .

« أى ثوب من الشياب الغالية تختارين يا رجاء ؟ »

« هذا ... ؟ »

« إنه طويل الذيل والسكم ، لا أريد أن أحجب هذه الأذرع العاجية ، ولا تلك السيقان البلورية ، »

« هذا ... ؟ »

« لا إنه طويل نضفاض ، أريد الذى يحجب اللون ويظهر الأوضاع »

« هذا إذن »

« إنه جميل حقاً ، ولكنه مشقوق الصدر والظهر لا يتفق وبرد هذا المساء »

« إذن هذا ، حقاً إنه محبوبك الأطراف ، دقيق التقاسيم ، »

ولكن لونه حالك السواد قد لا يبعث في نفسه البهجة التي أنشدها ..
ولمحت ثوباً بعيداً لم ترتده في عمرها إلا ليلة واحدة ، ولكنه
كعبردها به ناصع البياض زاخر النجميل ، صفت ألوان الدنتلا
صفواً على جوانبه وأطرافه ..

« ما ضر لو كان هذا يارجاء .. »

« ولكنه ثوب العرس يارجاء .. »

والتفتت إلى المرأة ورأت نفسها فيها ..

« إنني عروس هذه الليلة ، ليكن هذا ، ليكن هذا ، وارتدته .

ولما اطمئنت إلى نفسها فيه ، فتحت باب الغرفة واستدعت الخادم .

سيعود سيدك الآن ، أضيء مصباح المدخل ، ومصابيح السلم ،

لا تنامي قبل عودته ، ربما نحتاج إليك كثيراً هذا المساء .

وجلست على المقعد المستطيل بجانب السرير تنتظر ، ولكن

الساعة الآن قد بلغت الثامنة والنصف ولم يأت بعد .

« ترين أنه سيخالف الظن » وما إن خطر لها هذا الخاطر حتى

نفرت منه ، وأبعدته عنها ، وظالت به حتى انزعته ، ومدت يدها

إلى المنضدة وتناولت كتاباً صغيراً وراحت تطالع ..

وحانت منها التفاتة عارضة إلى الساعة فإذا بها العاشرة ..

« ما لهذه الساعة تركض على غير وعي . العاشرة الآن ، هذا

غير معقول . وضايقها سرعة مضي الزمن ومعرفة تحديده ، فتناولت

الساعة من على المنضدة ودستها تحت الوسادة حتى لا تراها ،

ولا تعرف وقتها ، وعاودت قراءتها والليل في طريقه سائر ،

وظلت كذلك إلى حين .. ومدت يدها على غير قصد منها إلى الساعة ، وأخرجتها من تحت الوسادة ، « إنها الحادية عشر » . الحادية عشرة ، هذا غير معقول وإن يعقل ، ما أثقل هذه الساعة وما أسمع ظلها ، إنها تركض على غير هدى كالمجانين ، إنها تسخر منى هي الأخرى كما سخر الخيال منذ لحظة ..

وقدفت بالساعة إلى الأرض فتحطمت ، ورجعت إلى كتابها وعادت قراءتها ولكن في نفس الصحيفة التي فتحت عليها الكتاب منذ ثلاث ساعات ، وأخذت تقرأ وتقرأ والليل في طريقه سائر . وداعب جفניה خيال طارق بعد حين ، ورقص معهما رقصات مريضة ، ثم انتزع منهما الحياة فأماتهما ... ونامت ...

ودخلت الخادم على سيدتها ، فهاها أن تراها نائمة على المقعد بجوار السرير بثوبها الذي رأتها فيه منذ أن فارقتها أول الليل :

— سيدتى . سيدتى .

— ماذا ؟ .. هل انتصف الليل .. ؟

— الساعة التاسعة صباحاً يا سيدتى .

— التاسعة صباحاً ؟ التاسعة صباحاً ؟ .. ومتى خرج سيدك .. ؟

— لم يخرج يا سيدتى لأنه لم يعد .

— دعينى وحدى ...

وأطرقت واجفة ترتعد .

ثم قامت بعد حين تجوس خلال القصر .

ولأول مرة يسمع الطاهى تحية الصباح من سيدته .

ما إن بلغت بهو مسكنها الهادئ ، وطالعتها مخدعها الرحب
المنسق ، ورأت سريرها المزركش الوثير حتى طوحت بحقيبتها
الجلد اللامعه ، ثم ألقت بجسدها إلقاء عليه ، تنن تحت أعباء الضنى
المزير ، والجهد القاسى الذى ألقى بحمله الشقى على كاهلها الرخو
العمل الشاق ، الذى لا ينقطع ليل نهار .

وما إن أحست بدفع الفراش الوثير يتسرب إلى جسدها المكدود
الخائر ، حتى أرخت ساقها إرخاء ، ومدتها مداً ، وألقت فى هدوء
برأسها المضطرب على الوسادة الوردية . ثم دفنته بين راحتين
دافئتين ، وأنامل غضة بضمة لينه كأنها البلسم أولدة للمس . ولكنها
ما إن بدأت تحس بلذة الراحة يعيدها إلى جسدها الفراش الدافئ ،
وبنعمة الهدوء ترده إلى نفسها الأنامل الحلوة ، حتى رأت نفسها
على الرغم منها مكبة على مكتبها بين ملفات قضاياها تدرسها درساً ،
وتقتلها بحثاً ، وتعد نقط الدفاع فيها . ثم هى بين الفينة والفينة
لا ترفع رأسها وتلقى بالقلم لتستريح أو لتشرب فنجاناً من القهوة ، أو
لتتناول غداءها الذى اعتادت أن تتناوله فى مكتبها ، من يوم عرف
اسمها كمحامية ناجحة .

لا لم ترفع رأسها لشيء من هذا ؛ وإنما لتتناول من الدولاب
المجاور مجلداً ضخماً لدالوز فى الجرائم السياسية ، أو سفرأ كبيراً
لجارسون فى شرح القانون الجنائى ، أو لتقبل جلفاً لا يريد أن
تؤجل قضيته بأى حال ، لأن المعلم دكرورى العربجى أفهمه أن

التأجيل يضر بمصاحته. أو آخر يبذل يديها بالدموع ضارعا متوسلا أن تؤجل قضية ابنه خشية أن يسجن قبل أن يتم زفافه بعد أسبوع، أو لتستقبل زبونا جديداً يقدمه إليها مرقص افندى وكيل مكتبها، وهو يغمز لها بعينه من تحت منظاره الصديء المتدلى على أنفه الطويل، وكأنه يحدثها باخه الشفرة عن أتعاب هذه القضية التي يسيل لها اللعاب.

ثم هي تريد أن تفرغ من كل ذلك سريعاً لتبحث بنفسها عن مسكن جديد غير تلك العمارة التي يضايقها فيها ذلك المهندس الشاب السمج الذي لا يريد أبداً أن يفرق بين المرأة التي تعمل والمرأة التي تحب...

بيد أنها تريد قبل كل هذا أن تخلو لحظة واحدة لنفسها تستعيد فيها قواها وتستجمع فيها نشاطها. ولهذا ألقت بالقلم، ونحت الورق، ورفعت رأسها المستمتع بمنظر الشمس الغاربة من نافذة مكتبها، ولكنها بدل أن ترى الأصيل يخضب زجاج النافذة بأنفاسه الأرجوانية العابرة، رأت أمامها مرقص افندى يفتح عليها الباب بقدمه، لأن ذراعه المرتعشة كانت تنوء بالقضايا الضخمة يحملها على صدره المكدود. ثم تقدم إليها وألقى أمامها بالدوسيهات وهو يتنفس الصعداء ويتحسس بيده الواجفه لحيته القنفذية المشعشة ويتمتم:

— جلسة الغد ١٢ جنحه وسبع مخالفات.

فزوت ما بين حاجبيها وضغطت على أنيابها، وبدت عليها

علام الضيق ودلائل التبرم والامتناع . ورأى مرقص افندى كل ذلك واضحاً ، رآه من خلف الأهداب الوظائف الساجية ، فأعاد يده المرتعشة إلى ذقنه وتمتم :
— آمال يا أستاذة هي حاجه سهلة .

فيندى جبينها ، ولكنها تتناول القلم وتهتم أن تلتقي برأسها الصغير بين الملفات الضخمة ، لولا أنها تسمع صوتاً ليناً ، لولا شيخوخته ، متصلاً ، لولا تهدجه ، يقول عند الباب :

يابنتى حرام عليك ، كل يوم تخرجى وش الصبح ، وترجمى نصف الليل . حرام يا بنتى ، صحتك — شبابك — بدنك .
ثم تعود الدادة من حيث أتت تلوك بين أناملها شيئاً فى مصفاة نحاسية سوف تعد منه العشاء لسيدتها .

وهنا تتنبه وتعرف أنها كانت تحلم مستيقظة ، فترفع رأسها وتستوى جالسة على حافة السرير تفكر فى استرخاء ، وقد ألقت جيداً نافراً ، وأرسلت طرفها الحائر يبحث عن شىء ثمين عند موضع قدميها حيناً ، وأحياناً بين ثنايا الوجه الفاتن الذى يتألق أمامها فى المرأة ولكنها من خلف سحابة شاحبة .

ومكثت كذلك زمناً تفكر فى أشياء أحست لأول مرة بلذة التفكير فيها . ودون وعى راحت تنزع عنها ثيابها ، ولكنها رويداً ، وفى هدوء ، وعلى مهل أيضاً .

ولكن هذا الجفن المنكسر ما بالفتوره الليلة يبدو هكذا رائعاً أخذاً ؟ وحدقت فى المرأة طويلاً . وهذا الخد الأسيل المتورد ..

ما به .. إنه يبدو هذه الليلة أشد تورداً .. أشد احمراراً .. إنه يكاد ينصر فوق الصفحة الرقراقة .. ما به ؟ .. إنه دم الشباب الشائر الفائر . وحدثت ثانية . وهذه الشفاه الممتلئة — وتلستها — ما بالها تبدو الليلة في انشقاقها كقوس قزح .. ما أمرها ؟ ما بالها تكاد تقطر دماً ، تفجر ناراً ؟ إنها غيرى من الخد الأسيل .. أم أنها تشكو حرقة الظلم يا جلييلة ؟

وأسبلت هديها في استرخاء قاتل . ثم عادت ففتحتهما على شيء كالبللور أو هو أشد بياضاً من العاج .

وهذا الجيد ألا تلغ النافر ما به ؟ . و . و . ونزعت الشوب فانشق القميص عن ثديين طائشين . وصدر عريض متألق ، لولا تبرمه بطيش النهدين ، وضيقه بوهن الخصر الممروض الواهي ، لما فتر لحظة عن الابتسام .. ورأت غير ذلك أشياء . ورأت ما بهرها في الجسد المتألق العارى . رأت أشياء زادها الجمال حياء فتوارت خجلاً في ذلة وانكسار .. وأخرى زادها الدلال تهاً فبرزت في دل واستكبار .

ولكن ما كل هذا الذى ترين يا جلييلة .. ما هذه السكنوز التى تملكين .. ما هذه اللآلىء التى تتألق وتضىء ما حولها .. ما هذه الثمار التى نضجت وآتت أكلها ؟ . وانفجرت أسارىها فى ابتسامة عذبه وتمتعت :

— إنها لى .. إنها لى — وافرحته .. لا .. ؟ . وقطبت وزوت ما بين حاجبيها . لا ، إن الله لم يخلق المرأة لنفسها يا جلييلة .. ولم

يخلق هذا الجمال عفواً .. ولم يخلق هذه الثمار لتجف على عودها ، وتذبل على فرعها .. الله يا جليلة لم يخلق هذه الكنوز عبثاً ، وإنما خلقها لحكمة بالغة . حكمة قام عليها الوجود في مجموعه وأوقف عليها الأزل جهاده ومجهوده . وسوف تعلمين كل هذا يوم أن ترقبي عن كشب هذه الثمار وهي تتساقط جافة كأوراق الخريف، وتسمعي لها كلها وطئتها أقدام الزمن أنين الشكل والترمل، وهي تموت على جذع الشيوخوخة البغيضة .

يوم ذلك تعرفين أن الله لم يخلق هذا الصدر إلا ليكون مهد الطفولة ، ولا هذا الثدي إلا ليكون نبع الأمومة ، ولا هذه الشفاه إلا لتطبع على جبين الإنسانية أطهر القبل .. ولا هذه العيون إلا لتلقن الناس آية الحب . لا ولم يخلق هذه الشجرة الفينانة وبسط لها هذا الظل الظليل الوارف إلا ليتفياً به الرجل كلها لفحته حرارة الصحراء وأوهى قدميه قيظ الهاجرة و . ماذا ؟ قل .. قل .. ولمعت حينها ورأت لهما في المرأة بريقاً نورانياً أخاذاً . وهمت أن تصغي ثانية إلى ذلك الصوت الساحر الهامس الذي ينسكب في قلبها انسكاباً . ولكن جرس الباب الخارجى دق وانساب رنينه في أذنيها ، فأسرعت ومدت أناملها وجففت دمعة لؤلؤية انحدرت انحذاراً على الخد المتورد فبلورته، ثم تناولت بسرعة من فوق المشجب (روبا) فاخراً من الستان اللامع وارتدته ، وهمت أن تنصرف ، ولكنها رأت في المرأة شيئاً جديداً استوقفها واستهواها ، فندسيت كل شيء إلا جسداً عارياً انساب كالموج في الثوب الفضفاض الذى

غدا على الجسد كقطعة من الصوف لفت على مصباح باهر الضياء .
فجبت أوضاعه ، ولكنها لم تحل دون إشعاعه . واستهواها المنظر ،
منظر المصباح الذى يحجبه الثوب . وشاقها الضوء . ضوء الجسد
المتلألئ .

وهمت أن تلتقي عنها رداءها ، ولكن مرقص أفندى كان قد دق
بيده المرتعشة على الباب ، وهو يصنح من رباط رقبته الذى تأبى
عقدته إلا أن تكون عند الكتف دائماً ، وتتم لاهثاً :

— تسمحي يا أستاذة نوصل لغاية القسم ؟

فخدجته بنظرة خاطفة وتمتعت :

— القسم . . لماذا ؟

— حاجه بسيطة ! جريمة قتل . والمتم قبض عليه وهو متلبس
بالجريمة .

ثم رفع شعرة طويلة تدلت من شاربه على شفتيه وقال :

— حاجه سهلة نصف ساعة على الأكثر .

وهمت أن تقول له شيئاً ولكنها أسرع هو قائلاً :

— صحيح الوقت متأخر . ولكن .

ومديده وقدم لها ورقة مالية كبيرة وعقب :

— معلمش يا أستاذة الشغل عاوز كده .

وانصرف مرقص أفندى إلى القسم ريثما تلحق به لتحضر

التحقيق . وقفلت هى إلى مخدعها فارتدت ثيابها فى تخاذل وضيق
وتبرم لم تألفه من قبل . ثم دلفت من الباب الخارجى وراحت

تهبط الدرج في استرخاء . وهي تلقى بساقها إلقاء ثم تعود
فتجرهما جرأ ..

وأحست بتخاذل ساقها فوقفت عند الطابق الرابع تنتظر
المصعد . . . ومرت بها صدفة صديقتها جرمين التي تجاورها في
المسكن ، وكانت تحمل على صدرها طفلها الصغير ، الذي استلقى
ضاحكا على صدر أمه يعبث بأنامله الحلوة بالشدي المستخفي خلف
التياب ، فاستوقفتها وصاحتها ، ثم أحست بشيء يجذب نظراتها جذبا
نحو الطفل ، فنظرت إليه ودققت فيه دون وعي ، وتقدمت إليه
وطبعت على جبينه قبلة عميقة أروت بها شفتيها الظامتين ، ثم دلفت
إلى المصعد مضطربة مذبذبة بشفتيها الراقصتين عن كل شيء .

وبعد حين وقف بها المصعد فشعرت بخطئها ، وأنها استوقفتها
في الطابق الثاني لا الذي تريد .

وهمت أن تضغط بأصابعها على زر من الأزرار ، بيد أنها رأت
بعض السكان ينتظرونه ، فجلت وتركتهم لهم ، وأخذت تهبط
الدرجات القليلة الباقية . . .

ولسكنها فجأة أحست بشيء يستوقفها ويشدها شداً إليه .
ولكن ما هو هذا الشيء الذي استوقفها ، الذي سمر قدميها ، الذي
جعلها تسلفت حو اليها مذعورة مضطربة حيناً وهادئة مطمئنة
أحياناً . إنها تراه . إنها تعرفه . إنها تهتم أن تهتف به . أن تناديه .
أن تطلبه . ولكن من هو ؟ وما هو هذا الشيء الذي تريد . أهو
حياتها . أهو وجودها . أهو دنياها ؟ ومدت بصرها مدأ . لعلمها

تراه . لعلها ترقبه . لعلها تعثر عليه فتهدأ . فتستريح . فتطمئن .
وجأة على حين لفته رآته . ورآته أمامها .

رأت وجهاً متطلعاً بساماً ، يضحك إليها ويكاد يلتمسها التهاماً
بعينيه . فزوت ما بين حاجبيها ، وجحظت عينها وراحت تتفرس
في وجهه ، وتنعم في كل جراحة فية ، في عينيهِ الواسعتين ، في جبهته
العريضة ، في عضلاته القوية ، في ساعده المفتول ، في شعره اللامع .
وانفرجت رويداً أساريرها ، وضحكت عينها ، وهممت شفتاها ،
وفتحت ذراعيها وهمت أن تلتق بجسدها المشتعل بين أحضانه .
لتدوب فيه ، لتتلاشى في صدره ..

ولكنها لم تجد أمامها غير (يافطة) نحاسية كتب عليها
بأحرف بارزة (أحمد رمزي المهندس) فاندعرت وجلة ، وانساب
دموعها باردة .. وهمت أن تركض على غير وعي . ولكن قواها
خانتها فلم تفعل . وإنما عادت تنظر في اليافطة النحاسية . وتتفرس
فيها وفي اسم صاحبها . وفي الباب الذي ثبتت عليه .

وانقضت لحظة رهيبة قاسية ، مدت فيها بعد جهد مرير
قاتل يداً مضطربة ، ودقت الباب دقا هينا . . !

وبينما كان الباب يفتح على مهل ثم يعود فيرتد سريعاً ، كان
مرقص افندى يؤكد للدادة في التاييفون أن الأستاذة لم تصل بعد ،
وتؤكد له الدادة أنها إنما ذهبت من زمن بعيد ..

ما ذهبت مرة إلى قريتنا ، واستيقظت مبكراً وفتحت نافذة
غرفتي المظلة على طريق الشاطئ ، حتى تمثلت لعيني الطبيعة في
الريف كأنها غانية تحب ، تلك تضيء على حبيبها من عطفها وحنانها
ما يجعل الحياة رطبية إلى قلبه ، ندية إلى نفسه ، محبة إلى عينيه ،
وهذه تولى الريف من جمالها ، وتغدق عليه من بهجتها ، ما يجعل
سكانه يتصورون حياتهم سعادة دائمة وهناء مقيماً ، وكثيراً
ما شاطرتهم تلك الحياة ، وغمرت نفسي فيها ، ورحت أنهل معهم
من نهر الجمال تحت القبة الزرقاء .

الله أكبر .. الله أكبر .. ينبثق الفجر ، فينبثق معه صوت
المؤذن مردداً الاسم الجليل ، مرتلاً النداء الجميل ، بنغم عذب
رخيم يسرى في جوف الليل الساجي ، فتتجاوب له أصداؤه الكون
مرجعة معه سر الخلود ، ورهبة الأزل ، وعظمة الخالق . ثم تخال
الصوت وكأنه انسكب انسكاباً في آذان القرية الوسنانة متسللاً
إليها من خلال أبحاف الضباب الطاهر الذي يكون قد اكتنفها ،
ولفها بكسائه المندى بعطر السماء . فتحس بالحياة وقد دبّت في
القرية من جديد ، فتسمع وقع الأقدام الهزيلة توقعها الكهول
الفانية ، وهي تتسلل من الحواري والأزقة مبكرة ، وتنساب في
طريقها إلى المسجد مبسمة مسبحة بحمد الله ، خالق النهار والليل .

وقبيل الشروق ، ترسل الديكة آذانها فيساب الصوت في
الوجود معرجاً على أفواف الزهر وباسقات النخيل وأفنان
الشجر ، فتفيق النحلة ، وتمضى إلى الحشائش تمتص ورودها قبل
أن يتطاير من عليها الندى . في حين تستيقظ العصفير ، وتنطلق مع
الاطيار ترجع لحن الشروق الضاحك ، بينما تصدح موسيقى الأطيوار
فيستيقظ على نغمها الساحر الصبح الجميل ، ويطل بوجهه المشرق
على الكون الوسنان . ترى الغانيات متسللات بجرارهن ، منسابات
كسرب القطا في طريق الشاطئ الذي تحفه من الجانبين الأشجار
الوارفة ذات الأغصان الثمة ، والأوراق المترحة ، التي تمايلت
وتعانقت ، ثم نامت منبثة بعضها في بعض ، كعاشقين أمضهما الفراق ،
وأنهمكهما العناق ، وطال بهما السهر فاسترسلا في حلم جميل .

ويموج الطريق من البكور بهذه العرائس الحسان ، وقد
انتثرن فيه غانية تلو غانية حتى يبلغن (الموردة) ، فينتظمن حولها
كالعقد النضيد ، ثم يلقين بجرارهن ويكشفن عن سيقانهن التي
تبدو خيالاتها تومض على الصفحة ، كأنها قطرات لامعة من ضوء
القمر . وفجأة تغوص هاتيك السيقان في قلب النهر الذي يستقبلها
فرحاً طروباً مداعباً ، يرسل الموجه تلو الموجه ، هذه تحتضن الساق
في حنو ، وتلك تضمها في رفق ، وثالثة تأبى إلا أن تلثم كل موضع
فيها ، وأخرى تمر من بين الاثنتين مارقة كالسهم ، وهذه هي التي
يحذرنها ويستلقين لها ضاحكات ، لأنها في اعتقادهن موجه خبيثة

ماجنة . ويمكن كذلك حيناً يرحن ويخبين لا يعكر صفوهن خيال طارق ، أو رجل سمج ، اللهم إلا الشيخ أبو النواظر الذي يقبل عليهن ، أو يخرج لهن من بين الأشجار بعصاه التي تبلغ قامته ، والحجر الذي يحمله في يده دائماً ، يدق به على صدره العاري الأشعث دقات متوالية منتظمة ، وهو يردد مع كل دقة هذا النداء الذي لا يفتر يردده ليل نهار (الله حي ، .. الله حي .. الله حي) وأحياناً يترك الاسم الأول ويردد الثاني بصوت سريع مرتفع ، وبينما الكلمات تتدهور من بين شذقيه ، ترى وجهه إلى السماء ؛ وهو يدق ويهدير كالبحر الهائج وقد سال لعابه ، وانساب من بين شفثيه الضخمتين إلى لحيته المسترسلة فرسم على شعراتها المتباعدة شبكة متماسكة ، كتملك التي يرسمها الندى على أعشاش العناكب في الشجر .

ويقال إن الشيخ أبو النواظر ولد كما هو مشوه الساتين ، معوج القامة ، ذا أنف عريض منبطح على فمه الكبير الذي شقت فتحة ثلثي وجهه ، وله ست أصابع في اليد الواحدة ، وكذلك في قدمه اليمنى . وإنه كذلك أيضاً من يوم أن جاء إلى الدنيا عيواً عنها ، زاهداً فيها ، هائماً في حب الله على هذا الوضع من (الدروشة) التي قربته إلى السماء ، ومنذ عليه بأن رفعت الحجاب بينها وبينه ، فأتى بالمعجزات وهو لا يزال في المهد ، حتى أنه مرة سقط من أمه في النهر ، ولم تتممكن من إنقاذه فغاص منها ، ولما انتشلوه أصيل

اليوم الثاني ، وجدوه بكامل صحته ينظر إلى السماء ، ويردد ضاحكا مستبشراً : « الله حى . . الله حى » ومرة أخرى أيقظ أمه من نومها وأرسالها إلى دار العمدة لتطفىء النار التى ستندلع فيها وشيكا . وفعلا شبت النار ، ولولا أمه التى كانت أول من شاهدها لدمرت القرية تدميراً . .

ومن هاتين الحادثتين وغيرهما ، لفت شهرته القرية والدساكر المجاورة ، وتبرك به أهلها ، وخلصوا عليه هذا اللقب ، لقب (الشيخ) الذى أضحى لا يعرف إلا به ، وبلغ من اعتقادهم فيه ، وتبركهم به ، أنه ما من إشكال يحدث فى القرية ، ويحضره الشيخ أبو النواظر إلا وتنحل عقده ، وما من دار يدخلها إلا ويتسلل الخير فى أعقابه إليها ، وما من امرأة يحول حائل بينها وبين الحمل ، ويضربها الشيخ بعصاه على ظهرها ثلاث مرات إلا وحملت ، وما من جاموسة أو بقرة يشح لبنها ، ويمر بيده المباركة عليها إلا وتعود كما كانت ، تدر اللبن على الدار إدراكاً .

ولكن أين هو . وأنى لهم به حتى يحل مشاكلهم ؟ ويبارك بهمهم ويزيل عوائق نسايتهم ؟ إنه دائماً على الشاطئ قد اتخذ من أشجاره مأوى ، ومن الحقول والمزارع المترامية مرتعاً فى الليل والنهار ، وكثيراً ما فعلوا المستحيل ليحملوه نلى البقاء فى القرية ، أو يجعلوه يبدل ثوبه البالى الممزق ، الذى يرتديه دون قميص أو سروال ، فكان ينفر منهم ، ويركض بعصاه الطويلة خلف كل من ياح عليه فى طاب ، أو يمن عليه بعتاء . ولما يئسوا منه ، تركوه

لمشيئته يحوب فيأفى الحقول طول الليل ، يدق بحجره على صدره ،
ويقطع طريق الشاطئ مئآت المرات فى اليوم الواحد ، ولا يهبط
القرية إلا إذا هبط عليه الوحى ، وأذن له بذلك ، فيذهب إليها
من تلقاء نفسه ، ويدخل هذه الدار أو تلك يبارك أهلها ، ويطلب
نساءها ، أو يصيب منها شيئاً من الطعام ، والسكان حوله ، كأن
زائراً كبيراً نزل ضيفاً كريماً عليهم .

وكان من عادة الشيخ أبو النواظر أن يلتقى بنسوة القرية كل
صباح عند الموردة ، بل كن اللأئى يلتقين به ، فما يكذب يرينه
مقبلاً عليهن ، وهن يغتسلن فى الماء شبه عاريات ، حتى يهرعن إليه
ويعترضن طريقه ، ملتفات حوله ، مداعبات مازحات ، دون أن
يحجبن ما بدا عارياً من جسمهن ، أو يخجلن من ثوبه الممزق
الذى لاحت منه بعض أعضاء الجسد . وكثيراً ما كن يمزحن معه
مزاحاً خارجاً أحياناً ، فيلمسن جسده العارى ، ليلبس جسدهن
فيتبركن ويتبرأن من أمراضهن . ولكنه كان يضيق بهن ، ولا
يتخلص منهن إلا إذا عمل بعصاه فى رؤوسهن ، وهو يتمم بعبارات
غير مفهومة ، فيركضن متفرقات ضاحكات ، ما عدا نبوية التى
كانت تقطع جفوة الشيخ لها نياط قلبها ، إنها تريد أن تستميله إليها ،
أو بمعنى آخر تريد أن تستميل عصاه إلى ظهرها ، فقد مضى على
زواجها ثلاث سنوات دون أن تنحل عقدتها وتنجب ، وقد فعلت
فى سبيل ذلك الممكن والمستحيل ، حتى حلاق الصحة ذهبته له ،
حتى حكيم البندر ترددت عليه ، حتى الفأر الجبلى أتت به وذبحته

ولوثت بدمه فراش زواجها ، كل ذلك دون جدوى . إن الشيء
الذى يفيد حقاً كما حدثوها ، هي عصا الشيخ . ولكن هذا الشيخ ،
كما يقولون عنه ، لا يضرب النساء بعصاه إلا إذا هبط عليه الوحي ،
فحتى يهبط هذا الوحي ؟ وما الذى يجعله يهبط ، هذا ما كانت نبوية
تفكير فيه ، وتبكي منه أحياناً ، وتتحسر عليه دائماً . ولكنها لم تيأس .
وهذا تفكيرها إلى ضرورة متابعتها فى كل مكان ، والتزلف
إليه ، وبثه شكواها بلسانها ودموعها حتى يلين لها ويرثى لبلواها ،
ويتعجل هذا الوحي الذى يأذن له بضربها ، وفعلاً راحت تطارده
فى كل مكان ، وتستيقظ مبكرة وتذهب إلى الشاطئ قبل أن يؤمه
أحد ، وتجلس إليه الساعات الطوال ، تن وتوجع ، وتنزف الدمع
السخين ، وهى تشكو إليه حظها العاثر ، وبختها المائل ، وكيف أن
زوجها سيطلقها ، وبذلك توقد ضرتها المشاعل ، وتدق طبول
الفرح ، بينما تنزوى هى فى ركن مظلم من أركان الخيمة . كل ذلك
وهو مشغل عنها بالتطلع إلى السماء ، وبالحجر الذى يدق به على
صدره ، اللهم إلا لحظات يحول وجهه إليها ويكتنفها بعينيه ، ثم يعود
كما كان مردداً بسرعة منتظمة (الله حى .. الله حى) فى حين تتتابع
دقات صدره ، فتتركه وتنصرف على أن تعاود السكر مرة أخرى .
وحدث ذات ليلة ، بينما كانت عائدة من الحقل ، أن خرج
عليها الشيخ من بين الأشجار واستوقفها ، أو هى التى استوقفته ،
ولما عرفها أشاح بوجهه عنها ، فظلت به تترضاه ، وتتمسح به ،
وتتوسل إليه ، إلى أن تنازل ومد يده إلى المكسل الذى تحمله

على رأسها . وكان به بقايا عشاء زوجها المقيم عند الساقية ، فعلمت أنه يريد أن يأكل : وضايقها أنه لم يلتق بها وهي ذاهبة ، فكانت تعطيه كل ما تحمل ، ولسكنها استوقفته ثم أسرع تركض إلى الدار ، ومكثت غير بعيد ثم عادت تحمل إليه بعض صنوف الطعام الشهى ، وجلست أمامه ، وهو يأكل ، وضحكات قلبها تكاد تهز الأرض الجالسة عليها ، لأن الشيخ أبو النواظر رضى عنها ، وأكل من طعامها . وفرغ من أكله فنظر إليها واقترب منها ، حتى كاد يدانها ، ومد يده وربت بها على كتفها ، ثم تناول عصاه وحجره ، وتوارى في المزارع خلف الأشجار يردد دعاءه .

وأخذت هذه الحادثة تتكرر كل يوم ، ففي وقت معلوم من الليل ، تتسلل نبوية إل المزارع ، حاملة على رأسها بعض ألوان الطعام الذى تنفق يودها فى صنعه ، وتختلسه من الدار اختلاساً ، وتحرم نفسها وزوجها منه ، حتى تلتقى بالشيخ ، وتقدمه إليه ، وتجلس قبالة حتى يأكله ، ثم تتكرر نفس العملية ، ينظر إليها ، ويقرب منها ويربت على كتفها وينصرف . إلى أن سألت ذات ليلة متى ستحل عقدتها ، فابتسم ضاحكاً ، وأسرف فى مداعبتها وفى الخنو عليها ، ثم مد يده ومر بها على رأسها الصغير وهو يتمتم فى مهمة : « بكرة . بكرة . بكرة » ثم تناول عصاه وحجره ، وغاص منها فى الظلام . وانصرفت نبوية إلى دارها ، وهى أشد النساء فرحاً وغبطة . ألم يرض عنها الشيخ أبو النواظر ؟ . ألم يمر بيده الطاهرة على رأسها ؟ . ألم يعدّها بأنه غداً سيحل عقدتها ويقضى حاجتها ،

وبذلك تلد وتكون من السعداء ؟. إنها ستلد ولداً . لا بل أولاداً
يملاؤن عليها الدار ، وتكيد بهم العذول ، ضررتها الخبيثة .

ولم تنم تلك الليلة من شدة فرحها إلا لما ، وكلها غفلت
لحظة ، رأت الشيخ أبو النواظر وهو ينال بعصاه على ظهرها ،
وهي مستسلمة له ضاحكة ، ثم ترى مرة أخرى زوجها وقد أقبل
عليها معانقاً ، فندفعه عنها بيديها في غبطة ، مشيرة إلى بطنها المنتفخ
الذي يوقظ مجرد لمسه النونو النائم في ساحته . انقضى الليل ، قدسلت
مبكرة من الدار بعد أن دست في كفا ثلاث فطائر ، كانت قد انسرفت
في الليل وصنعتها سرّاً لتقدمها إلى الشيخ عندما تلتقي به هذا
الصباح . وذهبت إلى الشاطئ قبل أن يذهب إليه أحد ، ولكنها
لم تهتد إليه ، أين هو ؟ . وأين ذهب ؟ . قد يكون عند الساقية
القبليّة ، أو عند الصنفاة ، أو مستلقياً على جسر الصرف البحري ،
أو نائماً في حطب أبي دياب . وراحت تطوف هذه الأماكن جميعاً
وتبحث عنه ، وهي تتعثر في خطواتها وسط المزارع حيناً ، وتغوص
أقدامها في الوحل أحياناً . وتسقط في تلك أخرى ، وكل همها أن
تجده لتعطيه الطعام الذي تحمله لتشعره باهتمامها به ، ولما أعيها
البحث عنه ، قفلت راجعة ، حزينة ، مكتئبة ، وقد رادتها فكرة
لعينة كاد قلبها ينفطر لمجرد التفكير فيها . ربما يكون الوحي
قد هبط عليه وأمره بمغادرة القرية إلى جهة غير معلومة . ألا
ما أتعسها ، وأتعس حظها .

وكانت قد بلغت المكان الذي تركت جرتها فيه ، فتناولتها من

قلب المصرف ، وانصرفت محزونة مخترة حقل أبي دياب في طريقها إلى القرية ، تدفع بيدها المقرورة أوراقه المائلة ، وتفسح لنفسها الطريق الملتوية ، ولاكنها لم تمش سوى خطوات قليلة ، حتى توقفت عن السير مصغية ، فقد سمعت صوتاً ينبعث من مكان قريب منها ، وما كادت تصغي إليه وتبينه ، حتى انفرجت أساريرها وهزتها نشوة عارضة ، إنه صوت الشيخ أبو النواظر ، ثم أصغت ثانية ، إنه هو يا نبوية ، ولكن ماله يخور هكذا كالشور الهائج ، ويتنمر كالكلب المسعور ؟ ! .

ترى هل أصيب بسوء ، أو لحق به مكروه ؟ . ترى هل التقى به الذئب الكبير الذي يتحدثون عنه في القرية ، والذي قتلك بآبن الشيخ عبد الصبور ؟

وما إن خطر لها هذا الخاطر حتى ألقت بالجرة على الأرض ، وانطلقت تركض كالجنونة ، غير مبالية بأعواد الأذرة التي تتقصف ولا بأطرافه التي تلطم وجهها حتى كادت تدميه ، وما إن بلغت مصدر الصوت ، وتبينت صاحبه حتى ارتدت صارخة مشدوهة ، حاجبة وجهها كله بذراعيها لكي لا ترى الشيخ أبو النواظر ، الذي كان يبارك إحدى النساء ، وهو ناشب أظافره الطويلة المعوجة في رأسها ، ليتمكن من هصر جسدها العاري المختبيء في أحضانها .

شيء واحد هو الذي استوقفها قبل أن تبلغ الدار . ذلك أنها رأت في طريقها كلباً نائماً ، فتقدمت منه وحدث فيه ، ثم مدت يدها وألقت إليه بالفطائر الثلاث ..

ذهبت لتغلق النافذة بعد أن نظفت الغرفة ورتبت أثاثها ، فإذا بها تراه وهو يغادر المركبة التي أقلته ، ويحتاز مدخل الحديقة وهو ينظر إلى الدار كأنه يتلفف إلى بلوغها ، وما لبثت أن رآته حتى تراخت قواها ، واضطربت أعصابها ، وصعد الدم إلى وجهها فجأة ، وتتابع أنفاسها حارة ملتهبة ، حتى كأنها تكاد تشعل قلبها ، وتحرق صدرها ، وتصهر ما عليه من ثدين جميلين لم يكتمل تكوينهما إلا منذ أيام .

إنه يعود الآن إلى الدار فجأة وعلى غير عادته ، مع أنها لم تلاحظ عليه أنه ترك المدرسة يوماً وعاد إلى الدار طيلة الشهور الستة التي قضتها في خدمتهم .

وهو أيضاً لم ينس شيئاً أتى ليأخذه ، فلو كان ذلك لأبقى المركبة التي أقلته . وفضلاً عن ذلك فهو لم يعد ليتصل بأحد من أفراد أسرته ، لأنه يعلم أن الأسرة جميعها ذهبت هذا اليوم إلى رحلة قصيرة في الريف ..

إذن هو يعلم أنها وحيدة في الدار ...

وإذن هو يحىء من أجلها ..

وإذن هو يريد منها شيئاً .. ومن يدري ربما أشياء .

أتراه كان يتحين الفرص حتى وافته هذا اليوم؟ أتراه كان يتحينها بصبر نافذ ، وقلب واجف ، وشرق ألهب فؤاده إلهاباً ، وأحال بشرته النضرة إلى هذا الشحوب ؟

لا بد أن يكون ذلك .
ولكن ماذا تعمل ؟
إنها ستخيب رجاءه بلا شك . إنها ستجعله يرجع من حيث أتى
يرزح تحت أثقال الخيبة . إنها لن تجعله أبداً ينال منها شيئاً .
ولكن . ولكن ماذا ؟
ولكن ماذا يكون موقفها لو باغتها فجأة ، وهصر غصنها
الرطيب بساعده القوى . . ؟
أستطيع أن تدافع ؟
وهل إذا دافعت تستطيع أن تصمد له به . تستطيع أن
تتغلب عليه ؟

وإذا لم تستطع ماذا يكون ؟

أستسلم ؟ أأستكين ؟

ترى ماذا يكون إذا استسلمت ؟ ترى ماذا يحدث إذا استكانت ؟
وبرقت عيناها واتسعت حرقتهما . .

لا . لا . لا . هذا لن يكون . هذا لن يكون . ولن يحدث .

ومع ذلك فهما حدث فاللائمة لا تقع على أحد سواها ، فلو كان
لها مرونة أتراها ورجاحة تفكيرهن ، أو لو كانت تعرف ولو
اليسير من لغة العيون ، لتبدل موقفها الآن ، ولا استطاعت أن
تتجو بنفسها وبغصنها المياد وثماره الدانية من مخالب هذا الشاب
الشار الأرعن ، الذي لا يعرف الهوادة في جنى الثمار . وليس ذلك
فحسب ، بل لا استطاعت أيضاً أن تتجنب الوقوع في هذا الشرك

الذى أعده لها الفتى الممتلىء قوة وحمية ، الممتلىء نضرة وشباباً .
لقد كان يجب عليها أن تعرف ذلك من زمن بعيد . أو على
الأقل من ليلة البارحة ، حينما تعتمد وهو على المائدة أن يطلب منها
كوبه ماء ، وتعتمد أن يلبس أنامله بأطرافه الملتهبة ، وهو يتناول
منها الكوبه ، ويغمز لها بعينه . ما أجهلها . لقد كان يقول بعينه :
غداً ستخلو الدار وسأترك المدرسة ، وآتى إليك لنقضى تلك
السويجات التى تعدل العمر . ولكنها جهلت ما قال وما تحدثت به
عيناه .. وإلا لكانت على الأقل غادرت الدار هى الأخرى ،
وأفسدت عليه خطاه ..

وها هى تسع وقع أقدامه على السلم وهو يصعد فى تخاذل وبطء
حتى ليكاد يعد درجاته درجة درجة .

ولكن لماذا هذا التخاذل والبطء ؟ لماذا لم يقفز الدرج قفزاً ؟
إنه يفكر فيها .. فى أمر هجومه عليها . كيف يحاصرها . كيف
يطوقها . ثم كيف يبدأ هجومه عليها بعنف ، ساداً ثغرها بثغره ..
ومعطلاً يدها بيده . وضاعطاً على صدرها بصدره ..

ولكنها سوف تكون يقظة حذرة . سوف لا تمسكه أبدأمن
الاقتراب منها أو ضمها إليه . أو حتى تقييلها . لأنه إن فعل ربما
باغتها فجأة ، وحملها على صدره فتتراخى قواها ، وتخور عزيمتها ..
ومن يدرى ربما .

وها هو جرس الباب ينساب رنينه فى أذنيها ، وها هى كل
جوارحها تتفتح لهذا الرنين شيئاً فشيئاً .

ولكنها تختفي خلف أستجاف النافذة ، فهذا هو أسلم الأشياء إليها . ولكن الجرس يعاود رنينه العذب فيهتز له كيائها كله .
 بيد أنها تحرص كل الحرص على الاختفاء ، فتتمد يدها لتلف الأستجاف على كل شيء فيها .
 ولكن بعد أن سبقتها قدماها إلى الباب . وفتحته .

* * *

وما لبث أن رآها حتى أمسك ذراعها بيديه وضغط عليها .
 وهاهو يضغط . ويضغط حتى ليكاد يخنقها . وهاهو يسير بجوارها وكأنه يتوكأ ملقياً نصفه الأعلى على كتفها ، وهي تسير بجواره شبه مستسلمة حتى يدخل الغرفة ، فياقي بنفسه على أول مقعد يقابله ويحاول خلع ثيابه .

وبدأت تفكر في الفرار ، ولكن لا من الغرفة فحسب ، بل من الدار كلها . وهمت أن تنصرف ، ولكنها فاجأها بأن طالب منها أن تعد له (البيجاما) تعد له البيجاما . ؟ !

إذن هو . بل لا . بل لا بد . بل من غير شك لم يطلب منها هذا الطالب إلا لمنعها لحظة من مغادرة الغرفة ريثما يفرغ من ثيابه ، ثم يبدأ هجومه الخاطف العنيف الذي لا يعرف الشفقة ولا الرحمة ، الذي لا يفرق بين ما يبيع وما يحرم ، بين الصلب واللين ، بين اليابس والرخو .

إذن فالعاصفة على وشك الهبوب . وهاهي بوادرها تبدو من ارتداء هذه البيجاما البيضاء الرقيقة ، وانظرأحه على السرير

تاركا شجرة اللامع تهطل خصلا ته الطويلة على الوسادة .
واستطاعت بعد جهد أن تهديء من روعها ، وتحول وجهها
ناحية الباب لتفكر جدياً في الفرار . غير أنه أراد أن يتحدث
في التليفون ، فأشار إلى المنضدة الصغيرة التي وضع عليها التليفون
بجانب الباب ، وطلب تقديمها إليه ، ولكنهما لم تفهم .

إنه يطلب منها أن تغلق الباب ، تغلق الباب .
ولكن كيف يكون ذلك ؟ وماذا يكون بعد أن يغلق الباب
عليهما ؟ بعد أن يغلق على قى ثائر وفتاة مكتملة الأنوثة ناضجة الثمار ؟
وبرقت عيناها واتسعت حدقتاهما .
لا . لا . هذا لن يكون . هذا لن يكون . ولن يحدث فلو وقف
الامر مثلاً عند قبلة واحدة . أو حتى قبلتين . أو قبلات ليسر
وهان . ولكن ربما لا يقف عند هذا الحد . ولا بد أنه سيتعدى
هذه الحدود .

إذن فهي لن تسمح له بشيء مطلقاً — لا بغلق الباب ... ولا
بالاقتراب منها ... ولا حتى بقبلة صغيرة ، وإن لم تحدث ذلك الرنين
الذي يكون عادة عند التقاء الشفتين ! .

لا ، لن تسمح له بشيء من ذلك حتى ولو أدى بها الأمر أن
تفتح النافذة وتستغيث ، أو تنزع هذا المشجب من على الحائط
وتغرس أطرافه المدببة في رأسه ، فما كان أبداً لثارها أن تجنى على
هذا الوضع ...

ولكن ذراعها اليمنى التي مسها تيار أنامله منذ لحظات تمرت

عليها ، وتقدمت على الرغم منها إلى الباب وأحكمت رتاجه الداخلى .
ومع ذلك فهذا لن يوهن من عزمها . . . ولن يوهن . . .
فستدافع وتدافع ولو بذراع واحدة .

وحانت منها التفانة عارضة إلى الدولاب المقابل فرأت نفسها
في مرآته الكبيرة . . . ووقع بصرها على شعرها النافر ووجهها
الشائر . . . وثغرها المتورد الدقيق الذى يراد لثمه الآن فى هدوء . .
أو تقبيله فى ثورة وعنف ، فتفرست فى كل هذا . . وأدهشها جمالها
الفاتن الذى لم تظن إليه قبل اليوم . . . وأرادت فى المرأة أن
تعمل مقارنة بين جمالها وجماله . . . بين ثغرها وثغره . . ووجهها
ووجهه . . . وشعرها وشعره . . . ولكن هالها أن ترى شيئاً لم
تظن إليه أبداً . . ذلك هو ثوبها الرقيق الممزق الذى تعودت أن
ترتيبه كلما همت بتنظيف البيت ومسح البلاط وغسل آنية المطبخ .
ورأت بعض ثقبه . . . ورأت شيئاً يشبه العجاج . . . أو هو
كالبلاور يبدو من بين الثقوب التى اتخذت لها سمت النجوم فى جسدها .
وهاها أن ترى ثقباً واحداً صغيراً كان من الدهاء والمكر
بحيث ثبت نفسه فى مكان ما من الصدر . . . فلم ترض به ولم تقبل
وجوده . ولن تسمح لأحد ولا حتى هو أن يرى ما بداخله أو
ما يديه . . . ولذلك أسرع بإخفائه براحة ذراعها الشائرة المتمردة ،
غير أن أناملها اللعينة عبثت بالثقب ووسعت شقته على الرغم منها .
وثارت ثأرتها على أناملها الماكرة الخبيثة ، فأخفتها بالذراع
كله عند ظهرها ، وبقي الثقب فاعرا فاه على لؤلؤة ثمينة بين فكيه .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل استطاعت الذراع الغادرة وهي في مكانها من الظهر أن تجد ثقباً آخر في موضع لا يقل خطورة عن الموضع السابق ، فأغرّت به الأنامل وظلت تغريها وتغريها بأشياء حلوة . . . حتى عبثت به ووسعت شقيقته أيضاً . . . وعلى الرغم منها مرة ثانية . . .

ولاحظ هو أنها لم تفهم إشارته السابقة إلى التليفون ، فأشار إليها مرة أخرى لتتقرب منه ليفهمها . . .

تتقرب منه ؟ . . . تقترب منه ومن السرير بطبيعة الحال . . . ولماذا يكون هذا الاقتراب . . . ألينفذ خطته الموضوعة . . . ويبدأ هجومه الخاطف العنيف في هذه الساحة الضيقة المحدودة ، حتى لا تتمكن من الانسحاب فترفع يديها مستسلمة . . . لن تتقدم إليه . . . ولن تصغى إلى إغرائه أبداً . . . مهما كان ومهما حدث .

ولكن ذراعها الباردة المتراخية التي لم يمسسها شيء من اللهب ، كذبت هذا الزعم ، وهمست في « عقلها » :
تقدمي ولا تخافي . . . سأدفعه عنك بعنف . . . وسأصفعه على وجهه إذا أدى الأمر . . . أو أحمله وحدي وألقي به من النافذة .
وما إن شلت ذلك الذراع الثانية التي أعلنت تمردا عليها ، وأغلقت الباب ، حتى ابتسمت وكذبت زعم زميلتها البلاء ، وهمست في (قلبها) :

أما أنا فسأضمه برفق ، وأربت على كل موضع فيه .

ولمس ثوبها غطاء السرير ، فأشار إليها إشارة واضحة إلى المائدة التي وضع عليها التليفون بجانب الباب ، وطلب تقديمها إليه .
ولكن لمن يريد أن يتحدث ولا سيما الآن . . . ومن الذي يريد أن يحدثه ويتحدث إليه . . . وفي هذه اللحظة الهائلة . . . هذه اللحظة التي ستتضع حدا لحياة وتكون نقطة تحول في دنيا .
آه . . . إن الساعة الآن قد بلغت الثانية عشرة تقريباً ، وهو يعلم أن الطاهية صحت الأسرة في رحلتها إلى الريف . وليس في الدار من الطعام الشهى شيء . . . وهو يريد أن يتناول غداءه معها اليوم ، وهي بجواره على المائدة . . . ولكن هل لا يتناول الطعام إلا على الموائد . . . ولماذا لا يكون مثلاً في حجرة النوم ، أو على حافة السرير . . . أجل على حافة السرير وهما يلعبان ، ويتبادلان القبل . . . ولماذا لا يكون هذا تجديداً في تناول الطعام ، مادام يراد في هذا اليوم قلب جميع الأوضاع ، ولو بالطرق غير المشروعة أو المألوفة . . . ولماذا لا تشير هي عليه بذلك كله إن لم يفتن إليه . . بل ولماذا لا تحدد هي أنواع الطعام الشهى الذي يريد أن يأتي لها به من الخارج .

إنها في هذا اليوم سيدة البيت الآمرة . . . فلماذا لا تأمر وتنتهى ، تأمر صاحب المطعم أن يأتي لها بما تريد .
إنها تريد في هذا اليوم أن تأكل بعضاً من أنواع الشواء . . . فيجب أن يكون من بين الطعام الذي يقدم بعض شرائح الضأن ، ولحم الدجاج . . . وبعض آخر من صدر (دندى) سمين .

أما أنواع الحلوى فستطلب أن يقرأ عليها أصناف ما يوجد ،
وعسى أن يكون من بينها ذلك الصنف اللذيذ الذى تمننت سيدتها
أن تأكله ولم تنله ... والذى يأكله الملوك ويسمونه « مهلبية
بصدر الدجاج »

لا بد أن تطالب هى كل ماتريد أن تأكل .. وفى هذا بالطبع
كل سروره ، أليس فيه بعض البذل منها ..
ومن يدرى ربما كل البذل .

وقدتمت إليه المائدة الصغيرة ، وناولته سماعة التليفون ،
وتعمدت هذه المرة أن تلمس أنامله التى أحست بالتهابها .

ووقفت ملتصقة بجواره ، وانتظرت حتى إذا ماردت إدارة
المطعم ، التقطت السماعة من يده ، كما ستلتقط القبلة من فمه .

ولكنها بدلا من أن تسمع ذلك الصوت الجمهورى الحبيب إلى
نفسها يتحدث وينساب فى قلبها ، كما انساب رنين الجرس فى أذنيها
منذ حين ، سمعت صوتا آخر ضئيلا مرتعشا لا يكاد يصل إلى أذنيها
من شدة اختناقه ، ولذلك لم تستطع أن تتبين منه سوى هذه العبارات
المتقطعة المحمومة :

— آلو ... صلاح ... أغثنى بدكتور ... أكاد أختنق ...
أكاد أموت ... لا ، فى البيت .

من مسوط يا سوي وقيل لك العيش كان

خواتم في أصابعه

كانت مشكلة السكن عند ما ذهبت إلى المنصورة من كبريات
المشا كل التي شغلت بالي . فقد ألقيت أجور المساكن مرتفعة إلى
حد يضايق حتى ذوى النعمة واليسار ، فما بالك بموظف حديث
مثلي كل مرتبه لم يتجاوز سبعة جنيهات ، وعليه أن ينفق منه على
نفسه وعلى أسرته الكبيرة التي تعيش في الريف ، والتي لم يكن لها
سواي ، أنا الذي لا أملك من حطام الدنيا أكثر من سبعة جنيهات
تتصدق عليّ بها الحكومة نظير قطرات من دمي أنفها أثناء العمل
المتواصل ليل نهار . ومع ذلك فأنا لا أستطيع أن أسكن بأكثر
من جنيه ، كما أنني لا أستطيع أن أنفق على نفسي بعد ذلك أكثر
من ثلاثة جنيهات ، لأن الثلاثة الباقية كانت تنتظرها أمي كل شهر
بصبر نافذ ، لتدفع بها عادية الجوع عن صغار خمسة مات أبي وخلفهم
لها وسط الصحراء ، لا ماء ولا شجر .

بيد أن الله لم يشأ أن يطول تعذيبي ، وأن تمتد بي تلك الأيام
التي كنت لا أتناول فيها سوى كسرة جافة من الخبز لأستطيع أن
أدفع أجر نومي على سرير من الجريد في لوكاندة الزهور بشارع
السماكين خلف ديوان المديرية . فقد تعرفت بماسح أجنبية طيب
القلب ، ما إن بثته شكواي حتى أشفق عليّ ورثي لحالي . وكان
شهماً كريماً فقد جاءني مع ظهر اليوم التالي ، وأنا مكب على عملي
في مكتب التكوين ، وهو يتصبب عرقاً ويلهث إجهاداً ، وناولني
مفتاحاً وهو يقول :

— مبسوط يا سيدى ونقلت لك العفش كان .

وهنا لمعت عيناى وانفرجت أسارىرى ، وفرحت فرحاً لا يقدر ، وخصوصاً لما عرفت قيمة الإيجار ، وهى نصف الجنيه فى الشهر .

وتاب الله على من لوكاندة الزهور وصاحبتهما الحاجة زبيدة ، التى كانت لا تفسح لى الطريق كل صباح إلا بعد أن أدس فى يدها الستة القروش أجر السرير .

وذهبت إلى مسكنى الجديد فى حارة الشوادفى فى حى الحوار . وكان مسكننا متواضعاً كأجره ، دورة مياه أشد إظلاماً من الليل ، وغرفة واحدة كأن متاع بانها كان أشد تواضعاً من متاعى ، فهى لم تسع سوى سرير صغير وكرسى من القش ، ومشجب لم أجده مكاناً إلا بعد أن أغلقت ضلفة من الباب على ألا تفتح أبداً . ومع ذلك لست أدري كيف أن الطابق الثانى كان فسيحاً تقطنه أسرة من الأسر ، غير أن تعزيتى الوحيدة هى أن غرقى كانت لها نافذة تطل على مقهى ، كانت فى الأصل اصطبلًا للخيل ، ثم حوّل إلى مقهى به عدة كراسى وترايزات متآكلة . ودهنت واجهته بالبوية الحمراء والجير ، وكتب عليها بالأزرق بخط يماثل فى التوائه الخط الكوفى - قهوة الأحبة والإخوان . اصحابها المعلم خليل الدهشان . وكان هذا المقهى هو منتدى الحى كله ، تتجمع عليه فى الصباح كهوله وشيوخه يسمرون ويشربون « الحى » وهم يستمعون إلى الشيخ هندومة بائع اللب ، وهو يقرأ لهم فى سيرة الزناتى خليفه ،

وما وقع له مع ناعسة الأجنان . وفي المساء ترى فتیان الحی وشبانہ
يجمعون عليه في ثيابهم البيضاء النظيفة ، ويتراصون في شبه دائرة
يشربون المعسل ويحبسون بالشاي الأسود والقهوة السادة ، وهم
يصغون للصفتي مطرب الحی وهو يغني لهم على الأرغول مواويله
« الحمر » التي كانت تستعاد بين التصفيق والتهليل . . ولا سيما إذا
غنى لهم موالا محبوباً عندهم كانوا يطلبونه بالذات ويلحون في
طلبه إلحاحاً :

طالع فوق شواشي الجبل اسمع نغم بالليل
عشق البنات البكاره هد منا الحيل

وكان من بين رواد المقهى رجل يمتاز بطوله الشاخص ، وعضلاته
القوية ، وساعده المفتول ؛ تلاحظ قوته من مجرد النظر إليه ،
ويساره من رؤية هندامه الجميل المنسق ، وشعره اللامع الذي
أظهر « فرقه » المعوج من تحت طاقيته الشبيكة البيضاء ، وجلبابه
السيكروته الذي يعنى بكميه دائماً ، والذي خاطه على طريقة تظهر
عضلات جسمه القوية ، فالأكام أوسع مما يجب بحيث أنه إذا
صاحك تستطيع أن ترى الوشم الذي حلى به الذراع كلها ، وأما
صدر الجلباب فقد اتسع أيضاً بحيث يكشف عن نصف الصدر
الفخور بعضلاته البارزة ، المدل بالوشم الكبير الذي نقش عليه ،
والذي يصور أسداً مفترساً يسحق بمخلبه ثعباناً هائلاً ملتوياً ،
يشبه في التوائه السلسلة الذهبية الفخمة التي حلى بها صدر الجلباب ،
والتي تشبه في لمعانها وانعكاس ضوءها الخوازم الأربعة الكبيرة التي

زان بها أصابعه ، فاليد اليمنى قد زانها خاتم كبير ، وآخر أقل منه حجما ، أحدهما فصه من العقيق الخالص ، والثانى من الياقوت البراق . واليد الثانية قد خنت بنصرها بخاتم كبير الحجم ، جعل فصه من الذهب يختلف لونه عن الذى صنع منه الخاتم ، وبجانبه فى الخنصر خاتم على هيئة ثعبان كبير ، رأسه من الماس الذى يهر بريقه الأبصار .

وكان هذا الرجل مرهوب الجانب قوى الجاء ، يتمتع باحترام جم لا مثيل له ، بحيث أنه إذا أقبل يتهادى فى الحى أفسح له الطريق ، وقام الناس إجلالا واحتراما ، وراحت العيون ترمقه فى وجل ، وترضاه فى انكسار ، حتى إذا ما أقبل على المقهى قام له الجميع يستقبلونه فى خضوع ، ثم هم لا يجلسون إلا إذا جلس ، ولا يتحدثون إلا إذا تحدث ، وكانت له فى المقهى ترابيزة خاصة به لا تستعمل إلا له ، ومقعد خاص مغطى بالقטיפه الحمراء عندما يقبل يهيا له فى الحال ، وما إن يجلس حتى تعد له الجوزة الفضية ذات النقوش المختلفة ، وزهرية الورد الفخار المزخرفة التى يحرس صاحب المقهى على نسيقها ليضعها أمامه بمجرد حضوره ، ثم يجلس مختالا مزهواً يشرب المعسل فى الجوزة الفضية ، ويستششق رائحة الزهور الجميلة ، والأتباع من حوله ينظرون إليه ، وكأنهم عبيد أذلاء يتطالعون إلى سيدهم العظيم .

ولفتت نظرى كل هذه الأشياء ، فسألت سلامة ماسح الأحذية فنظر إلى مندهشاً ، وكأنه يرمينى بالبلاهة والجهل ، إذ كيف يوجد

فى المنصورة بأسرها من يجهل ، الأفندى ، فتوة الحواز ، وميت
 حدر ، والشيخه عيشة . وتمثلت لذهنى معنى الفتوة مقترنة بشخص
 صاحبها العملاق وعضلاته الفولاذية ، فشعرت بشىء من
 الاضطراب تضاعف رويداً ، وسرى فى فرائضى ، ولا سيما عندما
 أقنعتنى سلامة بجهلى المطبق ، إذ كيف لا أعرفه وهو رغم هذا
 يسكن معى فى بيت واحد مع زوجه التى أبى أن يتزوجها إلا بعد
 أن قتل الثلاثة الذين كانوا يطعمون فى الزواج منها . وهنا لمعت
 عينائى وارتعدت فرائضى ، وخشيت أن يلاحظ سلامه ذلك
 فتركته وانصرفت أفكر جدياً فى ضرورة ترك هذا المنزل ، بل والحي
 كله ، حتى ولو أدى بى الأمر أن أرجع ثانية إلى لوكاندة الزهور
 وصاحبها الحاجة زبيده ، لأننى والحمد لله من الذين تروعههم طلمعة
 فأر صغير ، فما بالك بهذا الذى ترتاع القلوب من طلمعته . غير أنه
 حدث فى اليوم التالى أنه بينما كنت فى مكتبى ألثت إعياء ، ومن
 حولى الناس متراصون وكأنهم فى يوم الحشر ، يتضرعون ، لا إلى
 الله ، ولسكن إلى يدى التى توزع عليهم تصاريح الأقمشة الشعبية ، أن
 رأيت امرأة ، ما إن وقع بصرى عليها حتى جحظت عينائى ، وكأنهما
 شدتا بجبل إلى جمالها الفارط الذى لم أشهد مثله فى حياتى . وما إن
 رحت أنعم فيها النظر حتى شعرت بهزة عنيفة تجترقنى إليها ، وأنا
 أرقب عن كشب قوامها الفارع الممشوق ، الذى انساب كنور
 الفجر فى ملاءة سوداء لامعة ، غدت فى إحكامها على الجسد الفتى
 المتبلور كظلمة الليل عندما تضرب غياها حول مصباح باهر

الضياء . وعدت وفتحت عيني ، ولكن على صدر عريض منبسط
كاد يبدو عارياً ، لولا أن الكردان الذهبي الكبير الذي التف حول
العنق العاجي المشرب قد تددت سمكاته الذهبية فغطت الصدر ،
وراحت تعبت بالشديين النافرين حيناً ، وتغوص أحياناً في الجدول
المتفرق الذي بينهما . ورأيتني أنظر إليها فرنت إلى بعينين انشقتا
على بياض خاطف لاح فجأة من بين هديين طويلين ، وجفنين
منكسرين ، خلتنى أرى سحرهما وهو يتدفق على نونتين تغوران
في الخد كلما تبسمت ، كأن الله أوجدهما لتكونا نبع السحر الذي
يتدفق من عينيها . ثم أقبلت على تنهادر في خطوات مترنحة كقلبي
حتى دانتني ، ثم مالت على وهمست في أذني بصوت كأن رقه همسة
خفيف زنايق بللها الطل ، وقالت :

— مش حضرتك اللي ساكن معنا في البيت ؟

فقلت وأنا أنظر إليها مرتبكا :

— أي بيت ؟

فقلت وهي تناولني بطاقة كانت في يدها :

— بيت الافندي .

وما إن قرأت اسم صاحب البطاقة حتى نظرت إليها مشدوها ،
ورحت أتحمس بيدي المقعد الذي أجلس عليه ، لأستقر وتستقر
أنفاسي . وأحسست هي أنني أريد أن أقول لها شيئاً قد فطنت إليه ،
فقلت بصوت اختلطت أنفاسه بوسوسة الذهب الذي زانت به
معصمها وقالت :

— أنا مراته .

وما إن نطقت بهذه الكلمة حتى فقدت البقية الباقية من أعصابي ، وكل الذي أدريه أني أعطيتها كافة ما طلبت . ولما وهمت بأن تنصرف ، رحت أفسح لها الطريق كما يفسحه خادم لسيده ، إلى أن بلغت المركبة التي كانت تنتظرها ، فوقفت ثم نظرت إلى لحظة ، ابتسمت خلالها ابتسامة أضاءت الوجه ، وأضفت على الجبين كله نوراً باهراً . ثم مدت يدها وصاحتني ، ولما أحست بارتعاش يدي بين أناملها الرقيقة سحبت يدها ، واستدارت منكسرة الجفن قائلة :

— ابقى خليتنا نشوفك .

وانصرفت ، وعدت أنا إلى مكنتي فرحاً بهذه الخدمة المتواضعة التي مكنتني الظروف من تقديمها لزوجتي فتوة الحوار ، وميث حذر والشيخنة عيشه . وكان أن مضت أيام بعد هذا اليوم لم أر فيه أحداً حتى ولا سلامة ماسح الأحذية . . . حتى لم أرها ثانية إلا لما ، وإن كانت دائماً ما تكون عند دخولي الدار في الشرفة أو النافذة المطلة على الحارة ، ولاكني أشهد الله أن عيني ما كانت لتتحول عن موضع قدمي ، وإن بدرت مني نظرة عارضة فإلى المقهى وترايزة معينة . غير أني أحياناً كنت أراها عندما أدخل الدار خلف الباب تبتاع شيئاً من بائع متجول ، أو على الدرج صاعدة أو هابطة ، فكانت هي التي تحييني وتبتسم إلي ، ولما كانت ترى ارتباكاً وبصري الحي المنخفض ، تنصرف غانجة غارقة في أحلى ابتساماتها ، إلى أن جاء يوم وكان أول يوم في الشهر ، وذهبت

فيه إلى الدار مبكراً على غير العادة لأكتب رسالة إلى أمي أطمئنها على حالي ، وأبعث إليها بالثلاثة الجنيهات المعتادة ، وبينما أنا أجتاز عتبة الدار وأفتح باب غرفتي ، رأيته أمام مسكنها على الدرج وقد ارتدت (روبا) جميلاً من الحرير المشجر ، غدا جسدها يتألاً فيه كقطعة من الماس الثمين ، وقد ارتكزت بمرفقها العاري على درابزين السلم ، فقال جسمها الفارع في انحناء بسيطة زادت الجسد فتنة وجمالاً ، وأما كن البروز فيه حدة ومضاء ، حتى غدت في وقفها كالسيف كمنت قوته في انحناءته . وما إن رأيته حتى قالت بصوت عذب سبقته ابتسامة رقيقة ، أومضت من بين شفثيها :

— تسمع ياسي محمد تتفضل تشرب عندنا قهوه وتكتب لي جواب .
وشعرت كأن الأرض تميد بي ، وفقدت يدي مكان المفتاح من الباب ، ولاحظت هي ذلك فأقبلت علي في خفة ظلي مرن ، وما إن دانتني حتى قبضت براحتها على ذراعي التي راحت تلتفض في يدها ، ثم راحت تصعد بي الدرج وأنا ذاهل مأخوذ ، حتى أنني لم أتبين حقيقة الخطر الذي أنا مقبل عليه إلا وهي تجلسني على مقعد وثير في غرفة بها سرير تفوح منه رائحة عطر جميل وتقول :

— جرى إليه ، انت خايف ؟

ونبهي صوتها إلى وجودي ، فوقفت وقلت لاهثاً :

— تسمحي ، أكتب لك الجواب بعدين لأنني أخشى . .

فقاطعتني وهي تعيدني إلى جلستي ثانية ، ولسكن بجوارها على حافة السرير :

— ماتخفش أنا عامله ترتبي .

وهنا أدركت شيئاً ، وأرسلت عيني على الرغم مني نظرة مرعدة إلى وجهها المتورد وجسدها المتبلور ، فالفيت الروب قد انشق من الأمام عن نخذين كأنهما في نورهما شعاع شمس تسرب من ثقب نافذة إلى مكان خال ، يعلوهما قميص من الحرير اللين بلون الورد الأبيض ، ما إن رأيت لمعانه يختلط ببريق البشرة الناعمة حتى اندلعت ثأرتي ، وراحت تقذف حممها في جوارحي ، حتى التهب ، ورحت أنظر إليها كطفل يتيم يتطلع إلى قطعة من الحلوى . وكأنها رأت ذلك في عيني فراحت بعينها تهديء ثأرتي ، وتستنهض همتي ، وظلت بي حتى غدوت أنا الطفل أعبت بها عبت الطائر الكاسر بحمامة مهيضة الجناح .

وانقضت ساعات عدت على أثرها إلى غرفتي ، ورحت أنزع ثيابي متخاذلاً ، وأنا أشد ما أكون فرحاً بصديقتي الجديدة ، التي طمأننتني على مصيري ، وعلى تكرار لقائنا ، دون أن نعرض حياتنا للموت إن شعر بنا الأفتدى . وتفقدت وأنا أنزع ثيابي القلم الذي كنت سأكتب به الرسالة إليها فلم أجده ، فأسرعت لاستحضاره خشية أن يراه أحد فيظن الظنون . ولشد ما كانت دهشتي عندما رأيت ، وأنا أقبل على مخدعها من بعد ، « الأفتدى » بجوارها أمام السرير منطلق الوجه ، يعد في يده نقيوداً كنت أعطيها إليها ، وكنت سأبعث بها إلى أمي .

... وبعد تفكير طويل تناولت القلم وأخذت تكتب :
لو أنك استطعت أن تسأل القلم الذي كتبت لك به هذه
الرسالة : كم من الوقت ظل مستسلماً لأناملي في صمت ، دون أن
يقوى سنه على الدنو من الصحيفة ليخط عليها حرفاً واحداً ،
واستطاع هو أن يرد عليك : لأجابتك ثلاث ساعات كاملة ، بدأت
من الثالثة صباحاً حتى أقبلت أول قاطرة ترام تهز بدويها نوافذ
شارع الخليج ، وتزف إلى اللائي كحل السهد جفونهن من مكانه
بشرى انبشاق الصبح على نهار يأملن فيه تحقيق الأمانى .

وليس هذا تهيباً يا فؤاد ولا هو تصوراً ، فالجمل كانت تتسابق ،
والعبارات تتلاحق ، والكلمات تكاد تقفز من بين شفقي ، وتنقر
نفسها نقرأ على الصحيفة التى ستحظى ، ولو لحظة ، بنعمة التمتع
بأناملك ، أناملك التى ما لامست جسدى مرة إلا وأغرقتني في بحر
من لذات النشوى الفياض ، وهيات له خلاصة ما تشتهي المرأة
في الوجود من لحظات تمر بها .

إذن فيما قضيت ذلك الوقت ، وقطعت تلك الساعات
الثلاث ، ... في تخيلي جمال تلك الكلمة الحلوة التى أردت أن أبدأ ،
ولأول مرة ، بها رسالتى إليك . والتي هى عزيزة عليك ، حبيبة إلى
نفسك ، والتي هى (زوجى) ... أوه زوجى ، ما أحلى هذه
الكلمة ، وما أعذب رنينها في أذنى ، بل وما أحوج شفقي إلى
ترديدها دائماً ...

وليس مرجع شغفى بها لسمو معناها ، أو نبيل مرماها . فهى وإن كانت أسمى وأنبل ما فى قواميس اللغات من كلمات ، حتى أن الله ميزها واصطفها فجعلها همزة الوصل بين الرجل والمرأة ، وحجر الزاوية فى بناء المجتمع ، ونقطة الارتكاز فى العالم ، إلا أن شغفى بها لم يكن مرجعه لذلك كله ، بقدر ما هو لجمال تلك الليلة التى ألححت علىّ فيها أن أدعوك بزوجى . وظللت بشغفى تسكرهما برضا بك ، وتدغدغهما بثناياك ، حتى انجرحتا وفاهتا لك بها .

هل ما زلت تذكر تلك الليلة ؟ .. وهل تذكرها جيداً ، وتذكر ظروفها وحوادثها التى حدثت تباعاً ، وبسرعة غير منظورة أو مألوفة ... أما أنا فما زلت أذكرها ، وأذكرها جيداً . أذكر وقتها ولحظتها كما لو كنت ما زلت أعيش فى وقتها ولحظتها . وهل تنسى المرأة اللحظة التى تمر بها مرة واحدة فى حياتها ؟

من قالت لك غير ذلك فهى كاذبة ... شيطان لا تنساها المرأة : القبلية الأولى .. والزوج الأول .

أما القبلية الأولى فلأنها أول شرارة تشعل أنوثتها ، وأما الزوج الأول فلأنه أول بحر وقى أنوثتها عواذى الاحتراق .
... إذن كيف أنسى ؟

هل أنسى أصيل ذلك اليوم الذى جاءتنا فيه شقيقتك إلهام ، واستأذنت أمى فى أن أذهب معها إلى حفلة عرس ابنة خالتها مديحة ، وربما مكثنا هناك الليلة كلها . وقد قبلت أمى بعد لآى ، وبعد أن تأكدت من أن أمك ستصحبنا إلى هناك ، وسوف

لا ترجع إلّا بنا ، وما إن دلفنا إلى السلم ، ورحنا نهبط درجاته في سرعة ، حتى أطلقت إلهام ضحكة حبيسة ، أردفتها بقولها وهي تضغط بيدها على ذراعى الممسكة بها :

— إيه رأيك فى المؤامرة دى ؟ لا فرح ولا يحزنون .
ولما أطلقت المفاجأة جبينى وأوقفنى ، أطلقت إلهام ضحكة أخرى ، وقالت وهي تجذبنى جذباً وتقودنى إلى سيارتك ذات المقعدين :

— يا شيخه سيبك بقى من الجود ده . هو فيه أحسن من السهر والفرح والفرشة !

وانطلقت بنا السيارة حتى بلغت بنا باب الخلق ، فوجدناك هناك فى انتظارنا على مدرج دار الکتب . وكنت ترتدى البذلة الكحلية والكرافتة الحمراء التى انتقيتها لك يوم أن ذهبنا معاً لأول مرة إلى شيكورييل .

... أوه ماذا أذكر . أذكر لك حتى توافه الأمور . وأقول لك إننا ذهبنا بعد ذلك إلى السينما وإن إلهام استأذنت منا بحجة أنها على موعد مع سميرة وكيكى وأمها فى سينما مترو ، وربما عادت بهن إلينا قبل أن نخرج .

إن فى ذكر هذه التوافه ، ولا سيما إليك ، ثرثرة ملة . إذ كيف أقص عليك قصه أنت خالقها ، وأروى لك حادثة أنت مدبرها ، وغير ذلك فإنى أرى فى التغاضى عن هذه التوافه لذة كبيرة ، لأننا بذلك نضع يدينا ، وبسرعة ، على نافذة الحقيقة التى نطل من

وراثتها على الدنيا العريضة ، والحادث السعيد الذى ربط حياتنا ،
ودعم سعادتنا بدعائم الهناء الأبدى .

والذى أذكره الآن وتذكره أنت معى أننا بعد أن خرجنا
من السينما ، وانطلقت بنا السيارة فى طريقها إلى منشية البكرى ،
حيث مسكنك الخاص الذى اعتدت أن تقضى فيه أوقات فراغك ،
وتستجم فى هدوئه من عناء أعمالك المرهقة فى الوزارة ! بعيداً عن
ضوضاء البيت الكبير ، إنك قلت لى ونحن نجتاز مدخل الحديقة :
— انظرى حتى القمر يبتسم لمقدمك .

هممت أن أنظر إلى القمر ، ولكن شغلنى عنه ضوءه المنعكس
على شعرك اللامع ، فوقفت أتطلع إليه ، ووقفت تتطالع إلى .

ثم عدنا فواصلنا السير إلى أن احتوانا المسكن ، وآوتنا الوحدة ،
ورحنا فى صمت نفسيج خيوط السعادة ، ونضفر شبكة الهناء ، دون
أن نشوش على تفكيرنا بشيء ، حتى بلغ من حرصنا على مواصلة
الصمت ، أننا ، ونحن على المائدة ، كنا نتناول العشاء فى سكون
وتؤده ، حتى لا يحدث حركة تحول بيننا ولو لحظة فى وضع خيط
من الخيوط فى الشبكة . اللهم إلا كلبى الصغير فهو الذى كان يداعبك
فى تلك الليلة على غير عادته ، وينظر إليك نظرات مهمة لم أعودها
أنا منه . وكلما تغاضيت أنت عنه وأهملته ، قفز مرة على صدرك ،
وأخرى على كتفك ، وثالثة يدنى رأسه الصغير من أذنك ، كأنه
يريد أن يسر إليك أشياء لا يود أن أسمعها . وكلما زجرته أنت
وابتعد قليلاً ، عاد ثانية ، إلى أن ركلته بقدمك ركلة قاسية ، راح

يتلوى على أثرها أمام غرفة مخدعك التى تمدد على بابها ، وقد وضع رأسه على الأرض وراح ينظر إلينا وكأنه يبكي .

ولما أردنا أن نجتاز باب مخدعك لترينى أثاثه الجديد الذى ابتعته حديثا ، هب فى وجهك وكأنه ينهرك أو ينهك . بيد أنك عدت فركلته ركلة أخرى لا تقل قساوة عن الأولى ، أودت به بعيداً وهو يتأوه . وكأنه جندى مشخن بالجراح . ثم دلفت بى إلى الغرفة وأحكمت رتاج بابها الداخلى . ولما سألتك لماذا أغلقتها ؟ قلت ضاحكا وأنت تنفث دخان لفاقتك — لنأمن شر الكلاب . والغريب أننى أكتب لك عنه الآن وهو مقبّع أمامى على المنضدة التى أكتب لك عليها ، ينظر إلى نفس النظرات التى يوجهها إليك .

ثم رحت ترينى أثاث غرفتك التى نظمته على طراز جديد . وإنى أصارحك القول إننى لم أر فيها شيئا ، ولم أعرف لقطعة من أثاثها لونا . إذ قد انتابتنى فى تلك اللحظة التى أغلقت فيها الباب فكرة خبيثة تملكتنى واستولت على ، حتى موهت شتى المراثيات فى عيني ، إلا لونها الأسود الذى ظل فى نظرى قائما ، ورحت أنظر إليك فى خوف ، أو بمعنى أصح ، وقفت حيالك مرتعدة لاهثة القلب من فرط الاضطراب ، وقد أدركت أنت ذلك ، فأسرعت إلى وطوقتنى بذراعيك ، ورحت تطمئننى وتهديء من ثأرتى ، فى حين أنك كنت من ناحية أخرى تستهض همى وتستذل قواى . وفجأة وأنا بين يديك ، شعرت بشيء غريب فتح عيني ، ولكن

على ذلك الشيء الأسود الذى أرتعد منه ، وجسم لى ، حتى كدت أرى بعينى مهد الجريمة ومخدع الإثم ملوثاً يقطر من دمي المسفوك . فاندعرت وأفلت من بين يديك محتمية بجدار الدولاب الفرعوى الكبير ، وظللت كذلك أرتعد وأنظر إليك فى خوف نظرة الشاة الضالة المغلوبة إلى ذئب الصحراء المفترس ، حتى كدت أسقط عند قدميك ، لولا أنك أدركت ذلك ، فأقبلت علىّ فى شهامة ونبيل ، وأعلنت أمام الله الذى يرقبنا نبأ عقد خطبتنا ، قائلاً وأنت تحتوى جسدى الخائر المنهوك بين ذراعيك القويتين : إنك اليوم زوجى أمام الله ، وغداً أمام الناس .

وهنا جحظت عيناي ، وراحتا تحرقان بك ، حتى غام بياضهما رويداً ، وانقفلتا على سبات لذيذ ، لم أفق منه إلا على عواء كلبي الصغير خارج الغرفة ، ونباحه المتقطع وهو يطرق علينا الباب طرقات متواصلاً ؛ حتى كاد يدمى مخالبه . . .

أوه مالى ولهذا كله ، فما كتبت لك من أجل هذه الذكريات العذبة ، وإنما كتبت لك رداً على رسالتك السابقة التى بعثت بها إلى من مصيفك فى الاسكندرية .

تقول إن سبب عدم إعلانك الخطبة وإتمام الزفاف بالسرعة التى أرجوها هو رغبتك فى أن تهيب لنا مسكننا خاصاً بعيداً عن مسكن الأسرة ، لأنك تخشى أن أمك وشقيقائك ينغصن على فى شيء . . . أما إلهام وسميره فعما قريب ستتزوجان . أما أمك ، أو بالمعنى الأصح . . . « حماتى » .

أوه... إني أضحك... أتدرى لماذا أضحك؟ .. لأننى أتخيل
نفسى معها فى عيشة واحدة... وأتخيلك عندما تعود إلى الدار
وتشكو لك منى فتعزى أمامها . وعندما تخلو بى تربت على كتفى
قائلا :

— إنى إنما أنهرك أمامها فقط — فأرد عليك من قلبى قائلة :
وغير أمامها يا فؤاد . فما أحب إلى من أن تصفى من أجلها ، ولو
كان الخطأ فى جانبها ..

فمن هذه الناحية ثق أننى ، كما قلت لك دائماً ، ليس أحب إلى
قلبى من أن أكون خادمة لمعارفك ، بله أملك وشقيقاتك .
وغير ذلك يافؤاد يخيل إلى أنك تناسيت السر فى إلحاحى
عليك بسرعة إنهاء الزفاف .. لقد مضى على تلك الليلة شهران ،
والحادث المنتظر بدأ يعلن قدومه .. إنى ليلة البارحة لم أنم لأننى
شعرت به ، لأول مرة ، يثبت وجوده ، وكأنه يدغدغ أحشائى
بأنامله الخلوة التى لم تخلق أظافرهما بعد .

أتدرى ماذا أريد أن أسميه ؟ .. عادل .. وهل تدرى لماذا
اخترت له هذا الاسم ؟ لأنه من أسماء الله الحسنى .. الله الذى من
على بك وقضى لى بتلك السعادة اللانهائية والفرحة غير المحدودة .
أرجو أن يكون — البلوفر — الذى أرسلته لك قد أعجبك ..
كنت أمس عند صيدناوى أشتري لك بعض حاجات خاصة
تلزمننا ، فأعجبت بلون جديد من الصوف ابتعت منه كمية . وها أنا
أشتغل لك فى واحد آخر سهرت فيه ليلة البارحة حتى الرابعة صباحاً

وإلى أن نلتقى كوعدك ، صباح الأربعاء ، على رصيف محطة
القاهرة في القطار الذى يصلها الساعة والنصف مساءً ... أبشك
أحر قبلات ... زوجتك :
حسنية

ولما انتهت من كتابة هذه الرسالة أعادت تلاوتها مرة ومرة .
ولما ارتاحت إليها طبعث عليها قبلة أودعتها كل ما تستطيع الزوج
أن تحمله لزوجها ثم لصقت عليها طابع البريد .
ولكى تستوثق من وصولها تسلمت من الدار خلصة ، يصحبها
كلها ، وألقت بها في صندوق البريد المجاور للدار . وعندما رجعت
قابلها بائع الصحف ، فألقى إليها بجرائد الصباح التى تعود والدها
أن يتصفحها وهو يشرب القهوة فى السرير عند ما يستيقظ ،
فتناولتها منه ، ثم راحت تصعد الدرج فى خفة ورشاقة حتى بلغت
السرير ، فاستلقت عاياه تعباً من طول السهر .

وبعد حين ، وعلى غير قصد منها ، تناولت الصحيفة ، ودون أن
تعى أخذت تقرأ هذا الخبر من صدر الاجتماعيات :
« سافر اليوم إلى فلسطين الأستاذ فؤاد بك الشافعى ، وعروسه
عنايات هانم فهمى كريمة سعادة أبو العنين بك من سراة
الأسكندرية ، لقضاء شهر العسل ، وكان فى توديعهما على رصيف
المحطة الكثير من وجهاء الأسكندرية وأعيانها .

شيء واحد هو الذي كان يشغلها بعض الشيء عن الصحيفة
التي استماتت عليها أناملها ...

ذلك هو كلبها الصغير الذي تحولت نظراته الحيرى إلى دموع
انسابت على فكيه .

مفاتيح الأقبال

قال محدثي وهو يدبر بين أنامله كأسه الثانية، وينظر إليها ليأتي
على ما فيها مرة واحدة ليمأ غيرها وغيرها . فقد كان في أواخر
أيامه من المدمنين :

حدث ذلك كله من زمن بعيد، فبينما كنت أجتاز تلك المرحلة
العذبة التي يتمتع فيها الإنسان بصدر الصبا، وشرح الشباب ، إذا
بعاصفة قوية تهب على دارنا ، وكانت عاتية فوصفت بكل شيء فيها ،
وأصابت أول ما أصابت جسدي الذي كنت أظنه قوياً بأخبت
الأمراض ، وطوحت بي إلى المصححة ، فمكثت بها خمسة وعشرين
شهرأ . ولما كتب لي الشفاء ، وغادرت دار الآلام ، وجدت
أن تلك الشجرة الوارفة التي كانت تظللنا جميعاً قد اجتث القدر
جذعها ، وأذرت الريح ببقاياها ، وأن ذلك الوجه الصبيح ذا اللحية
البيضاء الناصعة ، الذي كان نوره يضيئ على البيت كله فيملؤه أمناً
وهدوءاً ودعة قد تلاشى ، وخيم مكانه دخان ثقيل الظل تكاثف
في أرجائه ، وجثم في ساحته ؛ واستقبلتني أم باكية الطرف ،
محزونة القلب ، ملتاعة الفؤاد ، وصبي في الثانية عشرة من عمره
آذاه اليتيم في نفسه ، وأقبل عليّ وطوق عنقي بذراعه ، وتطلع إلى
عيني وكأنه يبحث فيهما عن آماله الضائعة ، ودنياه المفقودة ، ثم
قال وهو يقبلني قبلة أماتها الألم على شفتيه :

— لقد فقدت أبي فهل أجده فيك . . . ؟

وكانت آمال أبي في هذا الصبي كبيرة ، فأقسمت بين نفسي

لأقوم من منه مقام أبيه ، ولو أدى الأمر أن أرهق ساعدي لأنفق عليه . وولت إجازة الهندسة بعد ذلك بثلاث سنوات . ولم أمكث طويلاً حتى وجدت عملاً في مصلحة حكومية بإحدى عشر جنيتهاً في الشهر ، واستطعت بذلك المبلغ البسيط أن أنفق على نفسي والبيت وتعليم الصبي ، كما استطعت أيضاً بهذا المبلغ أن أفتح في سماء البيت كوة صغيرة ، نفذ إلينا منها بعض الضوء فأضاء نفوسنا ، وأثلج صدورنا بعض الشيء . ولكن أمي أبت إلا أن توسع تلك الكوة لئلا البيت نوراً ونفوسنا إشراقاً ، وتأنى على ما بقي من معالم الهم في قلب ابنها الحبيب ، فراحت تعد العدة لزواجي دون أن أشعر . ولما بلغتني نواياها حاولت طاقتي أن أثنىها عن عزمها ، لأنني لم أكن أحسن الظن بالزواج المبكر ، ولكنها أصرت ، وكاد الخلاف يستخدم بيننا ، وظللنا على ذلك أياماً كانت أمي في خلالها قد انتهت من كل شيء ، حتى من تحديد موعد الزفاف . ولم تمض ستة أشهر كاملة على تثبيتتي في عملي حتى كانت في داري زوجة .

وتبين لي فيما بعد أن أمي كانت على حق ، وأن الخطأ كله كان في جانبي لو أنني لم أستسلم لرغبتها ، فما كنت أعتقد أن السعادة التي نبحث عنها وننشدها لنا توجد كامنة في عيني المرأة التي لا يحجبها عنا إلا وطف الأهداب . وأن السلسيل العذب الذي يذشط الفكر ويحدد الحياة ويبعث فيها القوى الكامنة ، هو الذي نجده متدفقاً من بين خليج ثدييها ، وأن المرأة الجميلة التي تنشر شعرها الذهبي فوق ثوبها السنبجاني ، وتخطر مع الأصيل تلفها أسلاكه الأرجوانية

هي أئمن ألف مرة من تلال الذهب التي يقتتل عليها العالم، وتنجل من طلعتها الشمس. وما كنت أعتقد قبل الزواج أن النساء هن رياحين الدنيا، وهن عطر الحياة؛ وأن المرأة إذا دخلت بيتاً وضحكت فيه أطربت الملائكة، وأرقصت سكانه. وكان أن ضحكت في بيتنا امرأة.

وكانت عنان ولوعة بالضحك، شغوفة به، ما تنفك تضحك دائماً، وكأنها لحظت على ضحكها إذا تركتها على سجيته، ومنزجتها بخنجها ودلالها، أنها تسبي العقول، وتنفض السحر في النفوس، فغدت تضحك دائماً، تضحك لكل شيء، ومن كل شيء، حتى كلبها الصغير كانت لا تداعبه إلا بالضحك. وقد حاولت مراراً أن أشبه ضحكها فلم أعثر له على شبيه. كانت الضحكة نفسها أنثى توفرت فيها عناصر الخصب، إذا أصغيت إليها، وهي تقبل على أذنيك تهادى بشتى أنغامها وصنوف نبراتهما، حركت في نفسك كوامن الحب، وبعثت الحياة بسامة حتى فيمن هم في طريقهم إلى القبور. وجبينها الوضاء كان أول ما يتبادر إلى ذهنك عندما تنظر إليه، وهو في لحظة من لحظات إشراقه، أنك أمام تمثال من المرمر تصب إحدى اثريات ضوءها عليه فتتير لك كل شيء فيه، وتكشف لك عن بواطن جماله، وتعطيك صورة واضحة من ذلك الصدر العريض الذي ينبئك مجرد النظر إليه أنه إنما أقام نفسه كذلك في عرضه واتساق نهاياته وقوة عضلاته، لأنه كلف أن يحمل أجمل تديين عرفا على صدر امرأة.

وكم من ليال قضيتها مع هذا التمثال في محرابه ، لا شغل لنا إلا أن نصنع من أنفاسنا ثقاباً نشعل به أجسامنا ، دون أن نحس بكياننا أو نرحم قوانا ، حتى يهب علينا نسيم السحر الندي مبشراً بقدوم الفجر ، فنهرع إلى النافذة مطلين على الأزل من خلال أسجافها ، متمنين على الزمن أن يوقف دورانه لكي تخلد ليالينا .

وكان من فضل الله على أن أحبتني عنان حباً لا أعرف أن امرأة أحبته رجلاً ، لذلك أحاطتني بذراعيها وغمرتني بحنانها ، وسكنت حبها في قلبي وهي تضمنني إلى صدرها . ثم عرفت بعد ذلك كل ما أحب وما أبغض . عرفت أنني أحب أخي فأحبته . وعرفت أنني أهتم بشؤونهم وتهيء أسباب التعليم له ، فأقامت من نفسها له خادماً ومربياً ، وكثيراً ما كانت تقضى معه الشطر الأخير من النهار والأول من الليل تذاكر له أو معه ، حتى رمضت عيناها ذات يوم ولازمت الفراش أياماً ، دون أن تأسو على ذلك أو تفكر فيه . وعرفت أن مصابي في أمي كان كبيراً ، فقد لحظت على ذلك ، وبلغها خبر تلك الدموع التي سحتها عيناى على قبرها ، فأوقفت نفسها على تخفيف هذا الخطب وتلاشيته من نفسي ، والغريب أنها نجحت في ذلك نجاحاً باهراً في مدى أيام قلائل ، فقد استطاعت أن تجعل مخدعنا تعطره ضحكاتنا قبل توزيع صدقات الأربعين بأيام وعرفت . أنني أشتهى تناول الطعام في حضرتها ، فحرمته على نفسها في غير وجودي ، حتى ولو انقضى النهار كله ، ولم أرجع إلى البيت . وما أذكر أنني وصلت البيت مرة إلا وجدت خلف بابها

تتظرنى لتفاجأنى بضحكتها وتطوق عنقى بذراعها ، وتطبع على شفتى قبل اللقاء ، ثم تقودنى إلى المائدة التى تكون قد أعدتها لاثنتين : أنا وهى ، أو على حد تعبيرها : كمال ، وعنان .

على هذا قضينا أياماً يحسبها التاريخ بالسنوات الخمس ، أما القلب فبالحظات البشرى أو اللقاء ، ثم بدأنا بعد ذلك نجتاز مرحلة جديدة كانت هى ختام تلك الحياة ، ونهاية ذلك التاريخ . بدأت أحس بعد مرور تلك السنوات أن هناك شيئاً يشبه شأبيب الهم وطوالع الأسى يلوح فى حياتنا السعيدة . وبدأت هى تحس بشيء يشبه الفراغ والنقص الذى لا يلائم وجودها وتريد تكملته . وكان الشيء الذى يمضى هو رغبى الصادقة فى معرفة حقيقة ذلك الشيء الذى أراه دون أن أجده . ولاحظت على عنان أنها دائماً التفكير كثيرة التبرم ، تعلو وجهها كآبة ثقيلة الظل . وبدأت ألاحظ عليها أنها لا تتم بنفسها ولا بشئون دارها ، حتى شئونى الخاصة بدأت تلحظها بعين مجردة من العناية والاهتمام . فمثلاً الباب ، كثيراً ما كنت أجده موصداً عند قدومى ، والمائدة لا تعد إلا إذا طلبتها أو سألت عنها ، والضحكات الرنانة التى كانت تعطر أرجاء البيت . بدأت لا تتكون إلا بمقدار ، والحديث العذب الذى كان يتبادل بيننا ويتدفق علينا من حيث لا ندرى بدأ يتلاشى . وبدأنا نمكث الساعات الطوال دون أن يسأل أحدهنا الآخر عوداً من ثقباب ، أو فنجاناً من القهوة . ومكثنا على ذلك أياماً طوالاً كنت أرى فيها عنان من كثرة تفكيرها وإجهادها فى دفع الأذى عنها ، ذابلة

الرواء مقرورة الشفتين ، جافة العود . أما أنا فمن كثرة ما فاجأني من هم كنت كجسد الشمع عندما يوضع في ماء دافئ ، يذوب قلبه . وتآكل نياطه ، وهو محتفظ بهيكله . وعلى هذه الصورة قضينا أياماً كانت أثقل من أيام الشكل ، وأطول من ليالي التفجع ، مع أن ظاهرها كان طبيعياً لا غبار عليه . وتصادف أن رجعت مرة إلى الدار مع الليل ، وكانت الساعة الثامنة ، فلم أجد عنان في الشرفة تستقبلني ، ولا هي في البهو تنتظرني كعادتها . ولفت نظري عندما دخلت أن العشاء أعد على المائدة لشخص واحد ، فسألت الخادم عن سيدتها فأخبرتني أنها في مخدعها نائمة لم تغادره من قبل الغروب ، فأطرقت إلى الأرض ، ثم ييممت وجهي شطر المائدة ، وقد انطلقت مع أنفاسي زفرة حارة ، أعتقد أنها لو التقت عند خروجها بجسم صلب لصهرته . وبينما أنا على المائدة إذا بي أرى عنان تظهر على باب مخدعها تحمل على صدرها (سوسو) ، وسوسو هذا ابن إحدى سكان منزلنا ، وصديقة عنان . فنظرت إليها وأنا أخفي لوعتي بسترار من الابتسام وقلت :

— لماذا سوسو هنا الآن ، وأظن أمه قد نامت ..

فقلت : لأنه أبي إلا أن يبيت معي .

فقلت : إني أرى أمه لا تعني به أو تداعبه مثلك ..

فقلت : لأنتي أكاد أحبه أكثر منها .

فقلت وأنا أنظر إليها وإلى الطفل :

— إننى أراك ولوعة بمداعبة الأطفال. فما السر فى ذلك؟ أتحببهم
يا عنان؟

فقلت بصوت أسيف وهى تداعب شعرى الحزين بأناملها الرقيقة:
— ألا تعلم يا كمال أن الأم بغير طفل كالقفل المعطل لفقد مفتاحه .
وبرقت هذه الكلمات فى ذهنى كما تبرق السماء فى جوف الليل ،
فازدردت آخر لقمة كانت فى فمى ، وقلت وأنا أذهب لأغسل يدى:
— ولذلك كثيراً ما تعبت الشياطين بما فى جوف الصندوق الذى
يفقد مفتاحه ، أليس كذلك يا عنان؟

ولكن عنان لم تجب ، ومن ثم عرفت كل شىء ، واستطعت
أن أرى لون تلك الغمامة التى تكاثفت فى سماء بيتنا . واختمرت
عندى فى تلك الليلة فكرة عرض نفسى على طبيب من الذين أثق
فى رأيهم . وكان أن فحصنى ذلك الطبيب فحصاً دقيقاً ثم أفهمنى بعد
أن أجهد نفسه معى ، أنه من الخطأ فى رأى إلقاء التبعة على غيرى .
فاستطعت من ذلك أن أفهم كل شىء . ومن ثم ودعته وانصرفت
إلى دارى ، وفيها التقيت بعنان وصارحتها بالأمر ، وأفهمتها
ضرورة فراقنا ، إذ من الظلم أن أحملها وزر قصورى ، وهممت
أن أنطق فعلاً بتلك الكلمة الثقيلة على كل زوج ، ولكن عنان
أسرعت باكية ، وكمت ثغرى بيدها ، ثم جلست على فخذى ،
وطوقت عنق بذراعيها . ثم قالت والدموع تنفرط لأولوية على
صفحة خدها الأيسر :

— إننى لا أنكر أننى فكرت فعلاً فى الأولاد ، وأن هذا التفكير
سبب لى بعض الحزن الذى غير مجرى حياتنا بعض الشىء . ولكنى

ما فكرت مطلقاً أن أقضى على حياتي ومستقبلي ، فإن كنت تريد لي الموت فهأنذى بين يديك ، وهاهو فمك دعه يلفظ كلمة الطلاق . ورفعت يدها من على فمي ثم ارتمت على صدرى باكية ، وغاصت بين أحضان خائفة وجلة تبكي وترتعش . فحملتها على صدرى المكدود ، وذهبت بها إلى مخدعها ووسدتها الفراش ، وظللت بها أضمد جراح آلامها ، وأسكب في أذنيها ما أملاه على قلبي المجروح من عبارات الحب الصادق ، حتى هدأت ثأرتها ونامت بين يدي .

وكان أن تغيرت حياتنا بعد هذا الحادث بأيام تغيراً ملموساً فيه بعض الهدوء والأمن والاطمئنان ، وإن كنا مازلنا نردد في بعض الأحيان حديث الأقفال ومفاتيحها المفقودة ، إلا أننا لانحزن لفقدائها أو نفكر في البحث عنها . إلى أن دخلت على عنان ذات يوم مع الظهر وكنت في مخدعي مستلقياً على الفراش ، أتفرس في رسم لطفل صغير كانت عنان قد انتزعت صورته من إحدى المجلات ، وجلست بجانب كالطائر الغرد عند ما يهدأ في عشه ، ثم قالت بعد حديث قصير عن الصورة :

— أعطني جنيتها .

فنظرت إليها مستغرباً ، وأنا أعبت بشعرها اللامع الذي كان يحلولى أن أعبت به دائماً ، وقلت : لماذا ...

فصمت قليلاً ثم قالت :

— لقد دلتني أم سوسو على رجل عطار يمتن في السر صناعة

طب الأمراض التي تحول بين الخمل .
ثم صمتت وقالت : وقد برع في ذلك براءة شهدت بها كل نساء المدينة
وأخذت تعدد لى بعض الرجال الذين طبب جراحاتهم ذلك
العطار . ولما فرغت من حديثها ، قلت محزوناً ، ولكن مبتسماً :
— وهل يصلح العطار ، ما أفسد الدهر يا عنان ؟

فأشاحت بدموعها ، وزوت ما بين حاجبيها وقالت :
— ولماذا نظم العطار ونحسن لم نحن الاختيار .

فلم أرغب في جرح كبريائها أو إيلاء شعورها ، لأننى عرفت
بمجرد أن فاتحتنى في ذلك الأمر كيف تجرح الكبرياء ويؤذى
الشعور . فنقدتها الجنيه مظهراً ابتهاجى بذلك الطبيب الجديد .

وحدث في اليوم الثانى أن دخلت الحمام مع الصباح كعادتى ،
فوجدت إنائين ملىء أحدهما بالماء الدافئ ، ورأيت على سطحه
طبقة كثيفة من سائل أخضر لزج . ووجدت الإناء الآخر قد
طغت على سطحه أيضاً قطع صغيرة شبيهة بفضلات الخشب
المتكسر أو بقايا قطع الإسفنج . فسألت عنان عن هذه العوارى .

فقلت ضاحكة : إنها بعض وصفات الشيخ حسن . فنظرت إلى
الإنائين ثم إليها ، وقلت : ولكن هذه أوراق (رجلة) مخروطة
ولا يمكن أن ألوث بها جسدى . فقالت وهى تشير إلى الإناء الثانى :
وهذا مطهر يزيل آثارها من على الجسد . . . فقلت : (لا) ، ونطقت
بهذه الكلمة فى إصرار وتعنت ، ولكن عنان نهرتنى فى قسوة
وعدم مبالاة . كنت أظن الأمر سيكون عكس ذلك . فقلت فى

الحال مصدقا ، وقد تذكرت أمر رجولتي المفقودة : أجل لك أن تفعل ما تشاءين .

وصبت على جسدى ذلك السائل اللزج الكريه ، وأخذت تدلك به جسمى المحموم ، وأنا لها مستسلم ، ولأمرها طائع . ومكثت أكرر هذه العملية ستة أسابيع كاملة . لأن تعاليم الشيخ حسن ، له الله ، أبت إلا تعذيبى اثنين وأربعين يوما ، تبدأ بصباح جمعة ، وتنتهى عند ما يؤذن للناس بصلاة الجمعة السادسة . ومرت بعد ذلك ثلاثة أسابيع كاملة ، كنت أتناول فيها مع الصباح والمساء كل يوم شيئا (مطحونا) أسود اللون كرية الطعم . وإن أنس فلا أنسى تلك اللحظات التى كانت عذابا تجرعى فيها ذلك الدواء المرير بمقدار ملعقة صغيرة ، وهى أمامى تنهرنى كأنتى طفل صغير تجرعه أمه شربة والعصا فى يدها . ثم مرت بعد ذلك أيام أيضا ولكنى استجملت فيها من ذلك التعذيب ، وعاد فيها إلى عذاب هدوءها ورضاها ، وغدت كعبدى بها وارقة الظل ، مشرقة الوجه ، متبهلة الجبين ، بسامة الحيا . وعادت إلينا سعادتنا تركض بعد فك أسارها وأشرقت سماء بيتنا ، وحدد من جديد موعد افتتاح الشرفة عند الواحدة والنصف من كل يوم ، وانتظارى على الباب ، وتقبيلى عند اللقاء ، وتهيء المائدة فى موعدها لاثنين ، وكثر اختلافنا فى كل يوم إلى ملاعب التمثيل ودور الصور المتحركة . وكان جمالها وقتئذ وفرحها بنفسها وأمل فى توفير أسباب السعادة لها ، كل ذلك كان يحتم على إطاعة أمرها دون النظر إلى أى اعتبار آخر . وكان آخر المطاف لذلك كله أن تحققت نبوءة الشيخ حسن وأثمر علاجه .

وجاءتني عنان في يوم صافى الأديم وزفت إلى البشرى فلم أصدق ،
 وأسقط في يدي ، ولكن عنان أفهمتنى أنها الحقيقة ، ودلت على
 ذلك بأشياء ملموسة أقنعتنى ففرحت . كان فرحى بنفسى وفرحى
 برجوع رجولتى المفقودة إلى ، وانتشالى من وهدة الذل الذى
 تلاشى فيه وجودى أمام عنان ، والذى هو بمثابة الجرح الذى
 لا يندمل فى قلب الرجل ، وخلوصى من دواء الشيخ حسن . كان
 فرحى بذلك كله لا يقدر ولا يحد ، ولا أحسب أنه كتب فى الدنيا
 لرجل . وأراد التقدير أن يمعن فى سعادتى فجاءتنى فى صباح اليوم
 الثانى وأنا فى مكنتى برقية من القاهرة تنبئى باجتياز أخى امتحان
 النقل للسنة الثانية من كليه الحقوق ، فركضت إلى البيت مسرعاً لبشره
 ولأقدم لعنان باقة من السرور فى إطار نبأ هذه البرقية التى أعلم مدى
 فرحها بها . ولأقبلت على الدار وفتحت بابها بالمفتاح الذى أحمله ،
 وأستقبل أذننى عند دخولى نغم ضحكات عنان منبعثاً عندياً حنوناً من
 مخدعها الذى أقبلت عليه فى لهف ، لأهوى لجوه أسباب تواصل
 الضحك . ولشده ما كانت دهشتى عند ما وجدتها تضحك لأخى
 الذى احتوى جسدها العارى بين أحضانها .

ومد صاحبى يده لياتى على ما بقى فى كأسه الخامسة ؛ ولكنه
 بدل أن يرفعه إلى شفثيه قربها من عينيه وأدام فيها النظر . وإذا بى
 أرى جبهته تتقلص وعيناه تتلصص فى قلب الكأس ، وأنامله
 تتصلب عليه . وإذا بى أراه يلقى بها مرة واحدة على الأرض ، ومن
 ثم أخذ ينظر فى هدوء إلى أجزائها المتناثرة . . .
 لقد كانت أشباح تلك الوجوه الثلاثة تطارده حتى فى الكأس .

لَفَائِفُ تَحْرِيقِ

قال وهو يتأمل دخان التبغ المنعقد في سماء الحانة التي قادني إليها ، وقد تكاثف في أرجائها حتى غرق فيه المصباح الزجاجي الخافت المعلق في الزاوية ، فانبعث نوره الأصفر خائياً على وجوه تلك الحفنة من الحوزية والجمالين الذين جلسوا يتمايلون على الطاولة الرخامية تحت المصباح ، وهم يلعبون « البصرة » على زجاجات النبيذ الرخيص الذي يشرب هو منها ، والذي توزعه عليهم « جمالات » راقصة بار الأميرة بشوبها التلي الموشى بثريات الترت الأصفى البراق ، وحببات « خرج النجف » اللامعة التي انتشرت بكثرة على صفحتى الشوب فلألات تموجاته . وجورها البرتقالى الرخيص الذى سقط من على ساقها الزرقاوين الدقيقتين ، وتدلى على خالخالها الفضى فحجبه مع تلك الأزرار الأربعة التي صفت على جانبي حذاءها الأسود الباهت . قال وهو ينظر إلى ذلك كله :

أست ترى معى أن البؤس هو واضع أصول الاشتراكية ، وأنه هو الذى يجمع بين هذا الصنف من الناس فى صعيد واحد ؟ وقبل أن أجيبه بشيء نقر بيده نقرأ هيناً على الطاولة الخشبية المتآكلة التي بيننا ، وطلب زجاجة أخرى من النبيذ ، فأقبلت بها جمالات ، وقد سبقها رائحة كريهة انبعثت من ثغرها الأجوف الشبيهة بفجوة ضيقة فى قبر مهجور . وأومات لنا بوجه شاحب ارتسمت عليه صورة الموت الزاحف تظللها سحابة سوداء تمثل

رمز الشقاء الدنيوى . وكأنها أرادت أن تخفى معالم هذه الصورة الخالدة فدهنت وجهها بدهانات لزجة ، بيد أن العرق النابع من الجبين تصبب على الخدين فأحدث بهما شبه قنوات وأخاديد كشفت عن دقة الصورة ، وزادت الوجه دمامة وقبحا .

ووضعت الزجاجة بيننا ، ثم انصرفت توزع ضحكاتها المبحوحة على السكارى ، فشيّعها صاحبى بنظرة حزينة علقت بأذيالها ، وبكمأس من النبيذ الرخيص أفرغها فى جوفه ، ثم بدأ يتحدث وكأنه وجد فى الحديث تسليية وترويحاً عن نفسه الملتاعة . . قال :

كنت إذ ذاك لا أزال حديث العهد بالحياة العملية التى استقبلتها وأنا طرىء الساعد ، لين المنكب ، لا أقوى على حمل عبء الحياة الثقيل الذى قدر لى أن أحمله وحدى ، فقد نلت إجازة الطب بعد أن فقدت أبوى للذين كنت وحيدهما . وبفقدتهما حرمت شيئين هما أعز الأشياء على كل نفس ، حرمت الزميل الصادق الذى يدلنى على مسالك الحياة كلما ضل رائدى فى مفاوزها ، وارتطمت رأسى بصخورها اليابسة ، وحرمت المال الذى أبتاع به الدليل الصادق والحارس القوى ، وهؤلاء فى الدنيا كالمطايا لا تعينك على قطع الطريق إلا إذا ملأت لها المخلاة . وكنت من صغرى أبغض الموظفين لأنى تمثلتها فى والدى رحمه الله ، الذى كان موظفاً سجيناً حراسه تلك الجنميات التى كان يقبضها كل شهر ، وشعاره قتل الحرية الفردية فى الإنسان ، وتلوين أخلاقه باللون الذى يشتهيه الرؤساء . لذلك

كرهتها وعافتها نفسى ، ورفضتها بكل إصرار عند ما طلبت الحكومة تعيين أوائل الناجحين الذين كنت منهم .

وذهبت إلى الاسكندرية مسقط رأسى ، وافتتحت عيادتى هناك ، وكرست لها وقتى . وبذلت فيها مجهوداً أثابنى الله عليه ، فعرف اسمى كطبيب ناجح ، وكثرت زبائنى ، وكثر معها دخلى الذى كنت لا أطمع فى أكثر من نصفه ، وألهتنى شؤون المهنة عن كل ما هو دونه ، حتى شبابى الذى كان يتشوق إلى نسيم الحياة وعطرها الشذى أغفلته ، ولم أعمل له حساباً ، وأصبحت أمكت الأيام لا أبرح العيادة ، ولا أرى فى الطريق إلا ذاهباً لغوث مريض ، أو قافلاً من عيادة مرضى الذين اتصلت حياتهم بحياتى ، وراحتهم براحتى ، حتى بلغ من حرصى أنه لما تخرجت الحالة السياسية ، واستهدفت الإسكندرية للغارات المتوالية التى بثت الرعب فى نفوس الأهلين ، وجعلتهم يهيمون على وجوههم هرباً من الموت الدائم ، وينشدون الحياة ولو فى أحضان الفاقة والجوع ، لم أفكر فى الهجرة مع من هاجر ، لأنها ستفصلنى الليل بطوله عن مرضى الذين هم فى حاجة إلىّ ، ولذلك لم أفكر فيها أبداً مهما تعاظم الخطب وروعت نتائجه .

وظلت كذلك إلى أن حدثت تلك الغارة الفاجعة ، غارة ٧ يونيو ١٩٤١ ، التى ذهبت ضحيتها تلك النفوس البريئة تشكو إلى ربها ظلم الإنسان ، والتى لم أنج منها إلا بفضل بقية من عمر كانت

لا تزال باقية ، عندئذ فكرت جدياً في الهجرة ، ولم ألبث طويلاً لأن الفكرة كانت قد اخترمت ، فهاجرت إلى دمنهور ، واستأجرت مسكناً متواضعاً أقضى فيه الليل الذي كان يتمثل لنا في الإسكندرية بومة تنعق على رؤوسنا ، ونظمت حياتي على هذا الوضع ، أركب قطار المساء من الإسكندرية إلى دمنهور ، وعكس ذلك في الصباح ، بحيث أن مواعيد سفري لم تختلف يوماً واحداً من تلك الأيام التي ما برحت ذكرها حية في خاطري ، لم يشيعها الزمن بعد إلى مقابر النسيان .

وحدث ذات يوم أن استيقظت مبكراً قبل موعد القطار بساعات ، وسئمت نفسي الوحدة والانتظار في ذلك المسكن الضيق الذي لم أجد سواه في دمنهور ، فانصرفت إلى المحطة ، فإذا بها خالية مقفرة من المسافرين ، فترأى لي أن أذهب إلى البوفيه لأشرب فيجاناً من القهوة أحرق عليه لفاقة الصباح ، وأطالع أخبار الحرب . ولفت نظري وأنا أتهياً للجلوس سيدة تجلس وحدها في زاوية منعزلة من البوفيه ، وقد دفنت وجهها في كتاب تتأمله . لم يحدث مرآها في نفسي شيئاً جديداً ، لأنني تعودت أن أراها دائماً . كانت تركب معي قطار الصباح إلى الإسكندرية ، ونعود معاً في المساء في قطار واحد ، وكنت أراها دائماً كما رأيته في ثوبها الأسود الذي لا يتبدل ، و « طرحتها » القائمة التي تدلت أطرافها من الخلف على خدائها الأسود اللامع ، والتي لفتها لفة محكمة حول

وجهها الأبيض فزادته بياضاً ، كما ضاعف بياضه من قتامة لونها
وسواد شعرها الفاحم ، الذى أبرزت منه خصالتين كبيرتين تدلّتا
على صفحتى الوجه فحولتا إشعاعه إلى إشراق ونور . وكأن هذا
الزى الأسود الذى اختارته لنفسها ، أو أرغمها عليه القدر إرغاماً ،
أظهر خفايا من حيث لا تعد ولا قصد فساقاها لا يلفتك إليهما
قالهما الفنى الرائع ، بقدر ما يهرك الجورب الأسود وقد تراءى
لك وكأنه ملتف على أمواج من نور ، بيد أن رقة الجورب ونعومة
البشرة امتزجتا فانبعثت أضواء الساق تشاغل عينيك من خلف
نسيج الجورب الأسود الخفيف .

وكان جمالها فى مجموعها يمتاز على غيره بقلة غموضه ووضوح
معالمه ، فأنت ترى قدّها ، فتستطيع أن تتبين معالمه من خلف
التياب ، ويستطيع كل فضولى بمجرد النظر إليه أن يبين لك أسباب
وجوده ، وماهية وظيفته فى الجسم ، حتى لتحس بالثر الخلو قد
طاب جناه من أعلى قمم البروز فيه ، أو حلا قطفه من منعطفات
التثنى وحنايا التوجات . وكان ذلك يتمثل بوضوح أكثر فى معالم
وجهها وقسماته التى تجذب نظراتك إليها جذباً ، ثم تنقل إليك على
أسلاك تلك النظرات الخاطفة معانى تلك القسمات واضحة جليلة .
فبينما الشجر تستهويك مرأشفه ، وتحس وأنت تتطلع إليه بعذوبة
رضابه تسرى فى نفسك قهدهدها ، ترى الحدين وقد أضاء لهما ،
وتوردت بشرتهما من لفحات النار المتأججة خلفهما ، فتشفق على

قلبك الذى يتشوق إلى اللعب بالنار . أما جبينها فلم أر مثله جبيناً حذق فن العبث بالعيون . كان بهاء صفائه يستهويك فتديم النظر إليه ، وباهر ضيائه المنبثق من هلال الجبين يرمى عينيك بحبيبات صغيرة ، كأنها خلاصة النور الإلهى الذى خلقت منه الشمس ، فتغض الطرف من لآلاء النور ، وترجع به وأنت حزين ... إلا أنها كانت تبدو فى جلستها ، كما كانت تبدو دائماً حزينة مكتئبة ، سادرة القلب حائرة الفؤاد ، مشوشة الفكر تفكر فى أشياء ثقيلة على نفسها ، تحس أنت بثقلها من كثرة تأملاتها . وتراها من طول هذه التأملات وكأنها قد استكانت للحزن فلفها بغشاء رقيق ، تستطيع أن تتبين صورتها الحزينة من خلف نقابها ، فتعجب لهذا الجمال الذى خلق للصفاء كيف امتدت له يد العبوسة ، ولهذا المصباح الذى يضىء على مرمى النظر كيف أطفأته يد القدر .

وكان من مسببات لفت نظرى إليها وتفكيرى فيها هدوؤها ووحدتها ، فهى تألف الهدوء حتى فى خطواتها . وتحب الاتزان حتى فى لفتاتها وإيماءاتها . فلم أرها قط تحدث إنساناً أو يحدثها إنسان ، كأنها مخلوق غريب عن البشر تجهل لغته ولا تحب معرفتها . لذلك كنت لا أسمع صوتها إلا نادراً عندما تبثع صحيفة أو تشتري مجلة أو تسأل عن البوروجريه الذى كانت تطالعه كل يوم . عندئذ كنت أسمع صوتها ينبعث إلى أذنى كوسوسة الحلى أو أهازيج الطير وهى ترجع ترانيم الصباح فى أوكارها . وكان يحلو لها أحياناً أن

تبتاع بعض صنوف الفا كيهة من الأسكندرية ، كما كان يحلو لها أن
تشتري بعض أنواع اللحم من دمنهور ، فكنت أسر بذلك سروراً
لا يقدر ، لأنها ستسمعنى صوتها وهى تنادى الجمال ... ترى هل
هى وحيدة ... ترى هل هى حزونة ... أم ترى قد لحقها ظلم
الإنسان المتمدين فهوى بيتها ومات أهلوها فى غارة غاشمة ، وهذا
سر وحدتها وكآبتها ... أم ترى هل تقسو الحياة حتى لا تفرق بين
الرجل والمرأة ؟ أم تراها تعصب عينيها وهى تبذر بذور الشقاء
فى الناس حتى لا يستهويها الجمال فتشفق عليه وتسقطه من حسابها ؟
مرت بمخيلتى كل هذه الصور وهى قبالتى أبعث إليها الطرف
متلصصاً من خلال الصحيفة التى فى يدى ، حتى جاء القطار فطوت
كتابها ، وألقت نظرة عجلي على ساعتها الذهبية الراقدة بين فكي
سوار من الماس الثمين استمد ضوءه من بهاء المعصم العاجى الذى
التف عليه . ثم انصرفت فتبعتها عيناي وشيعها قلب أحسست لأول
مرة أن له آمالاً :

ودفعتنى هذه الآمال إلى التفرد فيها إن هى أقبلت ، أو التفكير
فيها إن هى أدبرت ، حتى أصبح مرآها من لزوميات عيني ،
والتفكير فيها من ضروريات عقلى ، حتى أنها كانت عندما تقبل
وتهدد طلعتها عيني الحائرة ، أفكر فى محادثتها لعل فى ذلك ما يريح
القلب ، الذى كان لا ينى يسر إلى نحيبه كلما زجرته عنها ، وحذرتة
من التماذى فى غيه ، فكنت أجمع لذلك شجاعتي لتعيننى على نطق

الكلمة الأولى ، وأقبل عليها حتى أحاذيها ، وإذا بعينيها تتحرك
أهدأ بهما الساجية ، وتنفر جان عن بسملة نور فيها صفاء القمر عندما
يطل على السكون من وراء غمامة قائمة . وإذا بشفتي تنسى ما لقنتها
من ألفاظ ، وشجاعتى تذوب وتتساقط مع العرق الذى يطفو من كل
جراحة فى ، وكيانى يهتز اهتزازاً فلا يسعنى إلا أن أتنحى بعيداً
عنها ، متعشراً فى خطواتى . وإذا بقلبي يألم لذلك أشد الألم ، ويحزن
عليه أشد الحزن ، وإذا به يتشكك فى رجولتى ، فيحزن ذلك فى نفسه
حزاً حتى ليكاد يدميها .

ترى هل هذا هو الحب ؟ ولكن ألا يتخذ غير العيون قواعد
يلقى منها شباكه ؟

وظللت كذلك حتى أتاحت لى الظروف ذات مرة فرصة
الجلوس قريباً منها فى عربة البولمان ، وكانت مستغرقة فى كتاب
بالفرنسية تقرأه بعناية ، حتى أنها لم تفتن لوجودى قبالتها .
ولاحظت أنها متأثرة جداً بما تقرأه تأثيراً غير ملاحظها ببعض الشيء ،
واستحوذ على عواطفها حتى أنها نسيت الوجود بالكتاب الذى
فى يدها . وألهبت حواسى الغيرة من هذا الكتيب ذى الغلاف
الوردى اللامع الذى نام مستسلماً بين أناملها ، وأعطاه قلبه فأعطته
عينيهما . فاخترت نظرة إلى عنوانه ، فعرفت أنه « سافو » لألفونس
دوديه ؛ وكنت قد قرأت هذه القصة قبل ذلك . وعلق موضوعها
بذهنى وقتاً طويلاً ، فشجعنى ذلك والتأثر البادى عليها حتى بلور

عينها بالدموع على أن أتجراً وأقول :

— بودى لو أن سيدتى تروح عن نفسها بعض الشيء ، فما هذه الصور التى تقرئين عنها إلا هياكل نسج خيوطها الخيال ، وصور معالمها العقل ، ثم نفخت فيها الألفاظ من روح معانيها ، فغدت صوراً إنسانية تتحرك أمام عيوننا .
ثم شجعتنى نظرتها إلى ، فواصلت حديثي :

— ثقي ياسيدتى أن أمثال : « سافو ، ومرجريت ، ومانون ليسكو » ومن على شاكتهن ، ماهن إلا بغايا لو ثت الرذيلة قلوبهن ، وأماتت فيهن الشعور الإنساني ، والخيال الخصب وحده هو الذى يصورهن لنا راهبات ، ويخلق منهن قديسات ، ويخلع عليهن تلك الصفات الموشاة بالعطف الذى يستدر الدموع من مآفينا .
قلت ذلك وصمت لحظة ، طوت خلاها الكتاب ، ورفعت إلى ، ورمتنى بنظرة فاحصة أدامتها طويلاً ، وزمت خلاها على شفقتها ، وزوت ما بين حاجبيها كأنها تنفرس فى مخلوق جديد عينها ، ثم انفجرت قائلة دون تريث :

— ولم لا يكون الخيال الخصب الذى تتحدث عنه هو الذى أملى عليك هذا القول ؟ .

ثم هزت رأسها وقالت : وإذا لم نسكب الدمع ياسيدى على المحرومات اللأئى ينفق عليهن الجسد . . أنسكبه على اللأئى يرفلن فى ثياب المسال ، ثم يتجردن للرذيلة كلها جن الليل ؟ لست أدرى

أيها الرجال لماذا تسكبون الدموع عند أقدام المرأة وأنتم تخرجونها من الجنة ، ولا تسكبونه عليها وأنتم تلقون بها في النار؟ .

ورأيت شبه عبدة حائرة تجول في مآقيها ، ولكنها أخفتها خلف هذب طويل مسترخ وقالت :

— إن هذه النار التي وقودها شهواتكم ، والتي ألقيتكم بالمرأة فيها دون تريث ، هي التي قلبت أوضاعها وغيرت معالمها ، وجعلت منها مخلوقا بلا جسد ، لقد أكلت هذه النار جسدها ، واتصلت بنفسها فأشعلتها ، لذلك هي جسد محترق ونفس تحترق ... ثم غلبتها تلك العبدة التي كانت تجول في عينها ، فانفرطت لؤلؤة على الخد الأسيل فبلورته .

وما إن قالت ذلك حتى شعرت بالحنجل ، وأحسست بوحدة تتجزأ ، ودييب الخيبة ياقبها متناثرة على جانبي ، وكأنها لحظت ذلك فخرلت وجهها بعيداً عني ، بيد أنني أعذرت لها عن هذا الرأي الذي قلبته لها ، وقلت إنني إنما أنتحلته لها لأروح عن نفسها التي لم تشفق هي عليها ، فقبات هذا بأن أذنت لي بالجلوس على مائدتها ، ثم طلبت لي فنجانا من القهوة اتصل به حديثنا كما اتصلت به صداقتنا منذ هذا اليوم .

كانت من صفاء النفس ، ونقاء الطوية ، وسلامة السريرة بحيث أظهرتني على دخیلتها ، وأفضت إلى بكل شيء . علمت منها أنها مدرسة في إحدى المدارس الكبرى لم تشأ أن تسميها لي ، وأنها

وحيدة لأهل لها في الدنيا ولا صديق ، وأنها كانت زوجا لرجل
من خيار الناس مات لسبع ليال خلت من زفافهما ، فترملت ،
وأوقفت على ذكر اه حبها ، وهذا سر وحدتها ومبعت كآبتها .
وشجعتني إخلاصها الذي كنت ألمحه متألقا في عينيها على أن أقرأ
عليها أنا أيضا في إخلاص صحيفة قلبي ، وهو امش نفسي ، فسر لها
أننا صنوان لوحدة ، وإخوان لهم ، وخذنان لحياة .

وألفت هذه الأشياء بين صداقتنا ، ووثقت عراها الغاية البريئة
والقصد الخالص والضمير النبل . واستطاعت أن تظهرني على كل
ما استخفى من نفسها ، فعرفت لأول مرة كيف يضيء الطهر
النفوس ، وتنيرها الفضيلة ، حتى تجعلها كأضواء السماء التي تنسكب
على عيوننا ، فضاء هذا من حي ، وربط حياتي بحياتها ،
وعرفت هي ذلك فاطمأنت إليه وأعطتني أعز ما تملك .. أعطتني
قلبا راضية ، فأعطيتها قلبي وأنا من الراجين .

ومكثنا بعد هذا التبادل ثلاثة شهور ، كانت هي أول مافزت به
من الحياة ، وتكشفت لي فيها الحياة عن حقيقة كنت أجهلها ، هي
ضرورة المرأة للرجل ، لذلك أزمعت في نفسي أمرا ، وانهزت
فرصة دعوتها لي في دارها للغداء يوما ، وقدمت لها خانما من
الماس الثمين معلنا به خطبتنا .

ولكنها لم تتناوله من يدي في فرح كما كنت أظن ، بل أذهلها
النبا ، ونظرت إلى وجلة ، ثم قالت وهي تنكس رأسها وترتعد :

— وهل تقبلنى وقد نالنى قبلك رجل ؟ . . ثم أردفت - إننى
تعسة . . . إننى أرمل . . . إننى أحترق ثم انفجرت باكياً ،
وارتمت على مقعدها محمومة ترتعش ، وظلت كذلك إلى حين .
وظلمت بها حتى هدأت ثأرتها ، وجففت لها دموعها ، ثم تناولت
يدها وعقدت عليها خطبتي ، وربطتها بقبلة أحست هى بإخلاصها
يتسرب إلى كل جراحة فيها .

ولم تمض سوى أيام حتى كنت قد هيات لها عشاً جميلاً أعطانيه
صديق كريم كان قد ابتناه فى مزرعته فى الريف ، ثم وقعنا الوثيقة
الرسمية ونقلتها إليه . ومن ثم أخذت أجلس قبالتها النهار كله أبتسم
إلى عينيها وهى تنقل لى على أضواء نظراتهما السعادة إلى قلبى . .
لقد علمتني عيناها أن الحياة ليست مالا فقط . . وليست مجرداً فقط . .
ولست الصحة فيها هى كل شئ . وإنما الحياة العريضة المعبدة
طرقاتها بورود الهناء وأزهار السعادة ، إنما هى فى يد امرأة جميلة
تربت بها على كتفك وهى تهبك قلبها . تهبك السعادة التى هى نور
يتسرب إلى قلب الرجل فيضيء جوانبه . وقد أوقف الله هذا النور
على عيون الحسان ، ليجبين فيهن الرجال .

وعلى هذا مكثنا بعد الزواج خمسة أشهر ، لاشغل لنا إلا
التجديف فى غدير الهناء بزورق الحب ، حتى يترأى لنا أن نخرج
على شاطئ الحياة فنأخذ منه ما نريد ، ثم نعود إلى تلك السويغات
التي تعدل العمر فننتزعها انتزاعاً من مخالب القدر ، ونروح نتقاذفها

وسط الغدير فرحين مهللين ، حتى يكتهل الليل ، ويلقنا بكسائه
السنان فهرع إلى فراشنا إلى أن يأتي الصباح ، فأتركها في سريرها
نائمة ، ثم أنصرف إلى الأبنكندرية ، ولكن بعد أن أكون قد
وضعت على شفتيها قبلة الصباح .

وحدث ذات يوم وأنا أتهياً لركوب سيارتي مبكراً أن ناولني
طواف البريد رسالة باسمها عليها طابع إحدى الوزارات ، ففحصتها ،
وإذا بها من وزارة الشؤون الاجتماعية ، تشكر فيها « عطيات فهمي »
على تنازلها عن تلك الهبة المالية التي كانت قد منحتها الوزارة للبغايا
اللائئ أنغى ترخيصهن .

ونظرت إلى محدثي ، ولكن تبلور الدموع المذسابة من عينيه
جعلتني لا أقوى على التطلع إليه ، فقد أثقل مرآها رأسي ، وأغمض
عيني ، وهويت برأسي المحموم على ذراعي ، وألقيت بهما على الطاولة
الملوثة برائحة النبيذ الرخيص ، ومكثت كذلك إلى حين ، وبخاة
رفعت رأسي على صياح السكارى الذين أخذوا ينقرون على الطاولة
التي أمامهم نقرأ منتظماً ، راحت توقع عليه « جمالات » رقصتها
المبتذلة .

والتفت إلى صاحبي ، ولكني لم أجد إلا مقعداً خالياً . وزجاجة
فارغة ، وكأساً بها شمالة .

ترى هل ذهب ؟

ترى هل كان يحدثني إنسان ؟

كان صادق النية عند ما فسكر في الذهاب إلى مكتبه بعد الظهر ،
على غير عادة ، لإنجاز أعماله المتراكمة ، والتي تكبدت أوراقها
أمامه بشكل يلغى النظر ويدعو إلى الرثاء . لذلك عرف زوجته
في عبارة موجزة مقتضبة وهو يغادر الدار أنه ذاهب إلى مكتبه ،
وقد يمكث به إلى التاسعة مساء . ولكنه ما إن ذهب إلى مكتبه ،
وجلس إليه ، حتى كانت قد لحقت به تلك الهولاجس السوداء
الخبيشة التي تسلطت عليه ، وتسربت في أيامه هذه الأخيرة إلى
وجدانه ، فأثارته ، وتألبت عاياه ، وظلت به حتى اجتثت كل
ما عداها من تخيلات ، ثم بقيت هي تلوح لعيذه في ظلمة الخاطر
المكسب حقيقة مرة ، ما إن يلحجها ماثلة حتى تتقد عيناه ، وتتسع
حدقتاهما ، وتروحان ترميان بالنظر المهتاج ، كأنه شواظ من نار ..
إنه .. ، إنه ماذا .. إنه يحنق ، لا بل يحترق ، ولكن ليست
السنة النيران هذه التي تلمح جسده هي التي تؤذيه .. هي التي
تأكله ... هي التي تفرى عظامه .. وإنما الذي يأكل جسده أكلا
ويفرى عظامه حتى ليجعلها تتطاير هباءً على ذؤابات النيران المندلعة
في قلبه . هو غيظه .. حقدّه ، تبرمه ... أذاه من تلك اليد التي
أشعلت النار في جسده ، وأشعلتها خفية وفي الظلام حتى لا يراها ..
إنه لو كان تمكن من رؤيتها وعرف صاحبها لهان الخطب
ويسر ، ولو إلى حد ما ، أما أنه يحنق ولا يرى الحبل الذي أحكمت

حياته حول عنقه ، أما أنه يحرق ولا يرى الأنامل التي حكمت
 الشقاب على جسده حتى اشتعل ، فهذا ما لا طاقة له به .. لا قدرة
 له على احتماله ... فهو وإن كان قد أحب زوجته وأحبت غيره
 فهذه ليست باعثة الداء ، فهذه طبيعة المرأة ... المرأة التي كانت
 نبت الوباء في الجنة ، فقذف بها مع أبليل لتسكون وإياه في الأرض
 محط الرذيلة ومهبط الآثام ... لذلك ليست جريرتها أنها خاتمه ،
 وإنما جريرته أنه أخلص لها الود ... أنه أحبها ... فهو لو لم يحبها
 لو لم يصطفئها ويتزوجها ... لو لم يخلص لها ذلك الإخلاص
 الذي لم يخلصه لنفسه أو يسره لإنسان ، لما حدث من ذلك شيء ..
 لذلك فهو لا تعنيه النار التي هيأ هشيمها بيديه ، وإنما تعنيه
 اليد التي أشعلتها ... ترى لمن تكون هذه اليد ؟ ترى من يكون
 صاحبها ؟ ترى من يكون ذلك الذي بهرها عشقاً .. شغفها حباً ؟
 أترأه الباشا رئيسه صاحب المنصب الرفيع والجاه العريض
 والحول والقوة ؟ وإلا لماذا أغدق عليه عطفه ، وخصه هو بخنانه
 وفرقه إلى الدرجة الرابعة ... أليقربه إليه ؟ .. أليؤه عليه ؟ ..
 أليجعل نقاب النعمة الملوثة الذي يعصب به عينيه يحول بينه وبين
 رؤية النسيج الأسود الذي صنع منه ذاك النقاب ؟ .. ولكن هل
 الباشا يعرفها ؟ هل رآها ؟ .. هل التقى بها يوماً .. ؟ .. ولكن
 لماذا يكون هو بالذات . ولا يكون صديقه إسماعيل الذي يجلس
 معه في مكتب واحد ، والذي لا شغل له إلا العناية بهندامه المنسق

الجميل ، وقوامه الفارع الرشيق ، وحواجبه السوداء المزججة ،
والذى لا حديث له غير حديث الحسان ذوات العيون النجل
التي تفتك ، والأهداب الوطف التي تقتل . والردف الثقيل الذى
ينوء به الخصر الممروض الواهى ، كما يتبرم أحياناً الصدر العريض
الناهد بالشدى النافر الأرعن . . .

وأشعل لفافته . . . ولكن لماذا يكون هذا بالذات أو ذاك
بالتحديد ؟ هل لا بد أن يكون عشيقها صاحب منصب وجاه ،
أو ذو خبرة بشئون الحسان . إن المرأة إن لسعتها الشهوة جعلتها
كإطائر الضال الذى أجدهه طول التحايق فى تيه الصحراء ، فلا
يعنيه إلا الفرع الذى يقيه لفحاتها ، سواء أكان ذلك الفرع بين
أشواك السنط الشائكة ، أم بين أفواف الزهر الرطيب .

لماذا لا يكون هو ذلك الساعى النوبى الذى كلف بخدمته فى
المكتب ، والذى من بلاهته كان يبعثه أحياناً إلى الدار . . .
أيكون هو ، . . . هو ماذا . . . وما إن خطر له هذا الخاطر
الأسود حتى صفع المكتب براحته صفعة أدمت أنامله ، وانتصب
واقفاً وقد برقت عيناه واتسعت حدقتاهما ، وراحتا تلقيان بالنظر
المحتاج كأنه شواظ من نار .

وحانت منه التفاتة وهو يذرع الغرفة بخطواته المجنونة ،
فرأى من النافذة رجلاً فى الشارع يتطلع إلى مبنى الديوان ، ويخص
غرفة مكتبه بنظراته ، فلبعت عيناه وتمتمت شفاته . . .

ما أتعسنى .. لقد ظلمت أولئك .. لقد اتهمتهم بالإجرام .
وها هو المجرم .. ها هو ذاك .. لقد ظننتى الحية الرقطاء أموه عليها
ولم أذهب إلى المكتتب كما عرفتها . لقد حسبته أترقبها وأدارى
الخنجر الذى فى يدي بقفاز من حرير ، فبعثت به لتتأكّد من
وجودى فى المكتتب ، حتى لا أفاجئها بالطعنة النجلاء ..

وأسرع فتناول طربوشه وراح يطوى الدرج فى خطواته
ليراه .. ليعرفه .. ليتحقق منه ، ولكنه ما إن بلغ الطريق حتى
وجده عابرسبيل ينتظر الترام مع أولاده الصغار .. فارتد خزيان ،
ورجع خجلاً .

وأخرج وهو يسير فى الطريق منديله ليجفف عرقه المتصبب .
والحقيقة ليجفف دموعه المنسابة .. وكان قد بلغ محطة الرمل ،
وكان فى حاجة إلى أن يشرب ، إلى أن يسكر .. إلى أن يملأ جوفه
بشتى أنواع الكحول القاتلة . فقد ألف الخمر فى أيامه هذه السوداء ،
فهى كثيراً ما تسكن أعصابه الشائرة وتخدر شعوره المتهيج ، وتسرى
باردة فى جسده المشتعل فتطفئ لهيبه ولو إلى حين . فعرج على بار
- تافرنا - الواقع فى ميدان محطة الرمل أمام موقف ترام فيكتوريا
وطلب كأساً من الزبيب .

وكان الميدان غاصاً بموج العابرين كعادته عند الأصيل ..
ورأى الناس تروح وتجيء فرحة مرحّة مستبشرة ..
ولكن لماذا لا يكون هو .. هو من ؟ هو ذلك المأفون

المجهول .. ذلك الوغد السافل بين هؤلاء العابرين فيراه وهو
في جلسته هذه فيسخر منه ويرسل إليه بنظراته التهكمية القاتلة .
وبرقت عيناه واتسعت حدقتاهما ، وراحتا ترميان بالنظر
المحتاج كأنه شواظ من نار .

وتناول طربوشه وأسرع داخلا ، وجلس خلف زجاج الباب
الكبير بحيث يرى ولا يرى ، ومن ثم راح يسكر ولكن بشراهة .
وبعد حين هدهدت نشوة الخمر أعصابه المحتاجة ، فراح يفكر
تفكيراً ظنه معتدلاً ، وخاله مستقيماً .. وحسبه منبعثاً من العقل
الهاديء الرزين .

إنه لم يمسك عليها بقبضته .. ولم يترام إليها عنها مذمة ، مع أنه
لو أمسك عليها واحدة لاتخذ منها سلاحاً جابهاً به .. ولكن كل
ما في يده من أنصال .. هي أوهام .. هي شكوك .. ولكنها حقيقية ،
وإن كانت ما تزال مخبأة في جوف الليل خلف أسجاف الظلام ،
وليس إلا أن تطلع الشمس فتبين .. .

زينتها . تجملها . عنايتها بنفسها .. إدامة تطلعها في المرآة ..
كثرة عنايتها بقوامها الفارع المياد . تلهفها على انتقاء فاخر الثياب .
حرصها على غوالي العطور وصافي المساحيق .. ثم ثوبها .. ثوبها
الجديد .. ثوبها الأزرق ذي الكرانيش البيضاء وأعشاش النمل
الأرجوانية .. ثوبها الذي قضت في حيا كتمته حتى غدت فيه فتنة
لكل عين ، ومرفأ لكل قلب .. أليس كل هذا مضافاً إليه جمالها .

جمالها المشبوب .. جمالها الجبار القاتل الذى كمننت خلفه أنوثتها
الطائشة المعرودة .. أليس كل هذا يقوى على هتك أسجاف الظلام
المختبئة خلفه الحقيقة .. الحقيقة المرة .. الحقيقة المدمرة ...
الحقيقة ال .. وانهمرت الدموع من عينيه ، وخجل من نفسه ومن
الناس لو أبصروا به يبكى ، فأخرج منديله ، وأسرع يتجفف دموعه
المسابة . غير أن نظرة عارضة عرضت منه وهو يدارى وجهه
خلف الزجاج ، فرأى شيئاً ، لا بل رأى أشياء ، ما إن وقع نظره
عليها حتى اهتز في جلسته مرتعداً مرتعباً كمن لسعته عقرب ..

لقد رآها . رأى هدى . رأى زوجه . رآها بثوبها الأزرق
ذى الكرانيش البيضاء وأعشاش النمل الأرجواني . رآها خارجة
من حلوانى فاروق المقابل للبار الذى يجلس فيه .. رآها خارجة
تتأبط ذراع عشيقها الذى أجهدده طول البحث عنه .. الذى هو
صديقه .. الذى هو زميله .. الذى هو إسماعيل .

ولسكنها لماذا تسرع الخطى .. لماذا تختبئ هكذا وتدفن رأسها
فى كتفه .. أتكون قد رآته .. أم هى ذاهبة معه إلى مكان ما تود
أن تخلص منه قبل التاسعة مساء .

وبرقت عيناه واتسعت إحدقتها ، وراحتا ترميان بالنظر المهتاج
كأنه شواظ من نار ..

وتناول طربوشه وانقذف يركض فى الطريق كالجنون ، ولسكنه
ما إن تفادى ترام فيكتوريا الذى كان قد هم بالسير ، واخترق

الميدان ، حتى كانت قد ركبت تاكسى انطلق يعدو بهما في طريق الكورنيش .

ومسه خيل فراح ينادى وهو يتلفت حواليه وسط الميدان كالمسحور : تاكسى .. تاكسى ، ولكن التاكسات انقطعت جميعها فى تلك اللحظة المريعة السوداء . فانطلق هو يعدو من زقاق أثيوس ، وما إن بلغ الكورنيش حتى رأى السيارة تلوح لحيذيه من بعيد ، كالشعاع الخافت فى ليل الشتاء .

ووقف يلهث ويئن من فرط الإعياء .. أين يذهب .. وإلى أى ناحية يسير . ومربه تاكس ولكن بعد حين . فاستوقفه وألقى بجسده إلقاء فى قلبه .. ولكن إلى أين ، وطرات عليه فكرة صائبة ، يذهب إلى الدار ، وهناك ينتظرها حتى إذا ما عادت تنوء تحت أدران الإثم الذى لوثت به جسدها وهى تتمرغ فى بؤرة الخطيئة ، ردها ثانية إلى المستنقع الذى كانت فيه ، ولكن بعد أن يكشفها للناس الغطاء عن ذلك الجسد الذى جعلت منه وعاء تلغ فيه الكلاب ..

وأقبل على الدار ، ورأى على بابها ابنه الوحيد الذى لا يعدل به الدنيا ، ورآه يلعب كعادته مع الأطفال ، ولكنه بدل أن يذهب إليه ويرفعه إلى صدره ويداعب شعره الأصفر اللامع وهو يقبله ، راح يرمقه من بعيد ويتأمل له لأول مرة — وهاله وهو يتفرس فيه أن يرى فى ملامحه أشياء لم يكن قد رآها من قبل ... أن جبهته

العريضة ... أن عينيه الواسعتين — أن شعره الأصفر اللامع ...
أن كل شيء فيه كأنه صورة نقات من ... من ... إنه ليس ابنه
إنه ابن الجريمة ... إنه ابن الإثم ... إنه ابن الخطيئة التي نسجت
المرأة خيوطها في الظلام ... إنه ابن اسماعيل ...

وبرقت عيناه واتسعت حدقتاهما ، وراحتا ترميان بالنظر
المحتاج كأنه شواظ من نار .

ورأى الطفل وجه أبيه المربد ، فأقبل عليه خائفاً يترقب ،
ورفع ذراعيه ليحتضنه كما اعتاد ، ولكنه ما إن اقترب منه حتى
ركله بقدمه ركلة قاسية ألقت به على الأرض صارخاً يئن ويتلوى .
ثم تركه ودلف إلى الدار فألقى الخادم فبادرها بصوت كهدير
البحر الهائج :

— متى خرجت سيدتك ؟

— لم تخرج ياسيدي ، إنها في السرير تشكو صداعاً حاداً من
وقت خروجك .

فرفع يده الثقيلة وهوى بها على رأسها وهو يرغى ويزبد —
حتى أنت — ثم تركها ودلف إلى مخدع زوجه متصلب شعرات
الرأس كأنها الحراب المشهورة ، فألفاها نائمه وأمامها على الطاولة
بجانب السرير كوبة من الشاي ، وكبسولة فارغة من الأسبرين .
فوقف أمامها لحظات يتأملها وهو زائغ البصر قد ارتسمت على
شفتيه المرتعشتين ابتسامة ساخرة ، لو أن زوجه كانت تعرف

شكوكه لفهمت كل ما يحول بخاطره .

وهمت أن تقول له شيئاً ، ولكنه بادرها بصوت محموم لم تألفه وهو يتفرس في عينيها : — أين كنت يا امرأة ؟
فذهلت واعتدلت في جلستها ، وتمتمت وهي تعمل بأناملها
الرفيعة في ملء السرير :

— ماذا تقول ؟

— أقول لماذا عدت مسرعة ؟ لماذا لم تنعمي بأحضانه أكثر
عما نعمت ؟ تكلمى . تكلمى : — واقرب منها خطوة — أأسرعت
عائدة حتى لا أثقل عليك بأسسلي حتى لا أضيق عليك قيدي ؟ ،
إذا كان ذلك فبشراك أنك من اليوم طليقة من كل قيد ، فشأنك
شأن اللواتي يحمن ترخيصاً بالدعارة .

وأقبل عليها مكفهر الوجه مربد السحنة ، متقلص العضلات
يزوم ويزجر كالحيوان المفترس . وراته كذلك فراحت ترتعد
وتتدرع حيناً بالحائط ، وأحياناً بالدر . ولكنه انقض عليها ،
ولوى شعرها الطويل الفاحم المتهدل في يده ، ثم قذف بها من على
السرير فسقطت منطرحة على الأرض ، ثم وقف لحظه يتفرس في
جسدها الذى انحسر عنه الثوب فبدا عارياً من خلال غلاتها الرفيعة ،
والذى خيل إليه أن الخطيئة قد درنته بنقطها السوداء ، فبدا له دميماً
مشوهاً . . . وغازله ذلك فاقرب منها ثانية ، وجذبها إليه وقرب
وجهها من عينيها الناريتين وهويرتعد ، ولاح له جبينها الوضاء

أشد ظلاماً من عتمة الليل ، فبرقت عيناه ، واتسعت حدقتاهما ،
وراحتا تلقيان بالنظر المحتاج كأنه شواظ من نار .
وهم أن يقذف بها ، ولكن قواه تراخت ، وتخاذلت ذراعه
فسقطت من بين يديه .

وما إن رآها متكومة تن وتتوجع حتى انفلت يركض من
الدار كالهارب ، وقد وضع يديه على عينه وهو ينتحب ويردد
بصوت حبيس مسموع :

أنت طالق ... أنت طالق ... أنت طالق .
حتى توارى .



وفي اليوم الثانى بينما كانت العربية الثانية تسير بأخر بقايا متاع
الزوجة المطلقة ، كان هو يسير فى شارع سعد زغلول فخوراً يترنم ،
فالتقى فجأة بصديقه إسماعيل ، وكان يتأبط ذراع غانية البارحة
صاحبه الثوب الأزرق ، ذى الكرانيش البيضاء ، وأعشاش النمل
الأرجوانية ، والتي قدمها إليه وهو يقول :
— صديقتى حميدة التى كثيراً ما حدثتك عنها .



لقد كانت هذه هى العشيقة . أما الزوجة فكانت تبكى الزوج
الذى جعلت منه الغيرة ثقاباً أشعله الخيال على مذبح الحب .

كانت المدرسة تبعد عن القرية مسافة لا تقل عن كيلو مترين تقريباً . وكانت تقوم وحدها وسط حديقة عريضة من حدائق الريف الكبيرة ، تحدها من الجهات الأربع مزارع مترامية الأطراف . لذلك كانت تلوح لك المدرسة من بعيد في غبش المساء كصومعة راهب في صحراء قاحلة . وبالرغم من هذا فقد حرم على المدرسات السبع اللاتي يشتغلن بها ، ومعهن الفراشة أيضاً ، أن يقفن في باب ، أو يفتحن نافذة ، أو حتى يتريضن في الحديقة إن أحيين ، إلا بعد أن يكون الليل قد لف الكون بكسائه الداكن الأسود ، حتى لا يرين أحداً أو يراهن أحد . وكانت هذه هي تعاليم حضرة الناظرة ، التي كانت تحكم بأمرها حكماً قاسياً في هذه الدويلة الصغيرة ، البعيدة كل البعد عن الناس والدنيا .

وعذر الناظرة في ذلك أنها امرأة ، كأن الأيام حلت مشاكها مع الزمن على حسابها : خلقة مشوهة دميمة ، وصوت أجش بغيض ، وعينان ضيقتان أكل الحقد أهدابهما ، ولم يبق منهما سوى نظرات نارية حادة لا تعكس مرئيات الأشياء على عينيها أبداً ، وإنما تعكس صفحة وجهها المشوه على خاطرها فتراه دائماً ، وتراه مقترناً بسلسلة تلك المصائب التي جرها عليها هذا القبح طيلة الأربعين سنة التي قضتها في دنياها الشقية . وأيسر هذه المصائب عندها مصائب الزواج الذي نكبت فيه ، فقد تزوجت ثلاث مرات . الأولى أنصف الله

الزوج فاختاره لجواره قبل الزفاف ، والثانية دب الخلاف بين الزوجين وانتهى بالتفرقة قبل شهر العسل ، والثالثة مكر بها الشاب اللعين ، وبعث إليها بورقة الطلاق ، ولما مضى على الزواج شهران ، أضاعت خلاهما المائتي جنيه التي كانت هي كل ما ادخرت من راتبها ومن حياتها المريرة الشاقة . ولذلك ما كانت لتفتح عينها إلا لترى هذا كله ؛ وما إن تراه حتى تندلع شرارة حقدتها ، وتروح تشور على كل شيء ، وتسخط على كل شيء ، حتى على فراشها الدافئ الوثير ، فكثيراً ما كانت تستيقظ في الليل وتنفض كل همها فيه ، وتطوح به هنا وهناك بحجة أن الحشرات التي في الدنيا جميعاً تأمرت عليها هي الأخرى لتحول بينها وبين النوم .

بيداً أن هذه النار التي كانت تعتمل في قلبها دائماً ، كانت تمر عليها لحظات تخبوفها حتى لتكاد تتحول إلى رماد بذوره الاستسلام للواقع المرير ، ولكنها كانت أيضاً تعود فجأة ، وعلى غير انتظار ، إلى اندلاعها وتأججها حتى لتكاد تحرق جسدها وتحوله إلى ذرات تتطاير على ذؤابات النيران المندلعة من عينيها . وذلك عندما ترى بنفسها هاتين العينين الفتيات السبع يخطرن أمامها في تيه ودلال ، ويرفلن في وشى الجمال الباهر الفاتن ، ويستمتعن بدفء الشباب الغض الذي تطفو حرارته على وجوههن ، فتحيل هاتيك الوجوه الغضة ، وتلك القسمات الحلوة ، إلى باقات جميلة منسمة : فيها الأحمر القاني الذي بلون الدم ، وفيها الأبيض الناصع الذي يبهرك ،

وفيهما الأسود الذى ضمخه السحر وأضفى عليه فتون الصبا جمال
الوهن وحلو الهزال .

وتراهن أيضاً وهن جماعة ، يسرن فى خطى وثيدة متكسرة
يوقعن أناشيد الأمل الحلو على أنغام الضحكات العذبة ، ويوقعن
ألحان الأنوثة البكر على همسات الشعر المسترسل الذى يداعبه
النسيم العليل ، فتشور ثأرتها ، وتنطلق إلى مخدعها باكية منتحبة ،
يأكل الحقد قلبها ، ويفرى الغيظ عظمها ، وتمسك حيناً تبكى
ما شاء لعينيهما المحمرتين أن ينزفا من الدمع . ولذلك تمسك زمناً إلى
أن يرجع الخيال الماكر الخبيث يعبث بها ، ويداعب رأسها المحترق ،
فتجف دموعها ، وتهدىء من ثأرتها ، وتعود لتراهن عسى أن يكون
القدر قد أحال جماهن إلى قبجها ، وعسى أن يكون أيضاً ، وفى لحظة
واحدة ، قد أحال شبابهن الغض إلى كهولتها البغيضة . . وتذهب
فرحة تتحسس الخطى فى الليل ، حتى لا يشعرن بها فيوجهن إليها
تلك النظرات التى كانت تنطلق معربة من بين أجفان سكرى ،
وأهداب حاملة فتقتها قطلا ، وتعبث بكل جراحة فيها ، وتقف
خلف النافذة ترقبن من بعيد . ولكنها ما إن تبصر مخدعهن حتى
ترأى عيناها من باهر النور الذى ينبعث من المخدع العذرى ، الذى
أضفى عليه الطهر لوناً بصفاء السماء ، وفيه سبع عذارى مستلقيات
شبه عاريات ، وكأنهن نجوم متناثرة ، يسبحن فى لجين الفجر حيناً ،
ويغصن أحياناً فى الصفحة الرقراقة ، حتى لا يذويهن الخجل من

طلعه الصبح المنور . وما إن ترى ذلك حتى ترتد وجلة مرتعدة مسرعة إلى مخدعها ، تخترق طريقها إليه ملتبهة الفؤاد كمنجم يشق طريقه إلى الأرض وهو يحترق .

فكان لابد لها من حل يخلصها من هذا العذاب ، ففكرت وفكرت وطال بها التفكير ، وأخيراً اهتدت إلى حل ما إن تخيلته حتى استقبلته فرحة به ، مطمئنة إليه ، راضية عنه الرضا كله .

... لماذا لا تنغص عليهن حياتهن كما ينغص عليها حياتها ؟ . لماذا لا تحرمهن حتى من طلعة الشمس كما حرم عليها القدر حتى الابتسامة العارضة ؟ لماذا لا تقطع عليهن سبل كل هذه السعادة التي يتمتعن بها ؟ وتكون هي اليقظة التي تبدد الحلم الجميل ؟ والتخمة التي تهيب أضغاث الأحلام ؟ . وبذلك يثرن مثلها تشور ، ويغضبن مثلها تغضب ، وبذلك أيضاً يندبن حظهن العاثر مثلها تندب هي حظها المائل المنحرف عن حظوظ الناس .

وكان أن أصدرت أوامرها المشددة إليهن باتباع كل مامن شأنه أن يحول بينهن وبين اللذة البريئة أو الهدوء والرضا . أو يبعث حتى الاطمئنان إلى نفوسهن ، وذلك بحجة المحافظة على الأخلاق ، وحرصاً منها على اتباع تعاليم الدين القويم . فالأبواب يجب أن تظل موصدة ، والنوافذ لا تفتح ليل نهار ، والمرابيل السوداء لا تنزع أبداً من على هاتيك الأجسام الغضة البضة إلا عند النوم ، والزين والتبرج هو من عمل الشيطان فليبتعدن عنه ، والحديقة

لا تطؤها أقدامهن إلا في الثلث الأخير من الشهر العربي ليحجبهن الظلام عن العيون الزهمة . والغسل والاستحمام يجب أن يكون بمقدار ، حرصاً على أموال الوزارة التي تستنزف في جلب الماء من الخارج . حتى الحديث بصوت عال هو محرم ، أما الذئاب البشرية التي تأتي إلى هذا المكان المقدس بحجة دفع المصروفات المدرسية ، أو السؤال عن بعض الطالبات لا تطأ أقدامها ساحة المدرسة ، وإنما تنتظر في الكشك الخشبي القائم في طرف الحديقة حتى تذهب هي إليها ، وعلى الفراشة قبل المدرسات السبع اتباع كل هذه التعليمات بدقة ، وتنفيذها بكل احترام .

وكانت فترة انتقال قاسية على نفوسهن ، قاومن فيها هذه الحياة الجديدة بكل ماؤتين من قوة ، ولكنهن انهزم من في النهاية شر هزيمة أمام جبروت الناظرة وغطرستها ، وكلما هممن أن يحددن المقاومة ، ويضعن خطة لهجوم جديد محكم تذكرن حادث حكمت التي ثارت مرة على الناظرة ، ورمتها بألفاظ جديدة على مسمعها ، وإن كان يحفظها قلبها . وكانت نتيجة ذلك أن رفع أمر حكمت إلى التفتيش ، وأصبح أمر فصلها موقوفاً على كلمة تخرج من فم الناظرة ، ولم تخرج هذه الكلمة ، لأن المدرسات ، ومعهن الفراشة ، بللن يدها المقرورة المعروقة بالدموع الساخنة .

ومع مرور الأيام ألفت الفتيات هذه الحياة التي أماتت الفرح في نفوسهن ، وقتلت البهجة في قلوبهن ، وأحالتن زهوراً ذابلة ،

وجعلتهن كآلات تتحرك بمحرك صناعى وضع زره الكهربائى فى يد الناظرة ، ورحن ينفذن تعليماتها بدقة ، لارغبة منهن فى إرضائها ولكن تمشياً مع إرضاء نفوسهن التى ماتت وعافت الحياة والدنيا . فالحديقة لا يذهبن إليها لافى الظلام ولا فى النور ، والمرابيل السوداء غدون لا ينزعهن عند النوم بل ينمن بها أغلب الليالى ، وغسل الوجه لا كل يوم وإنما كل أيام ، والحمام أصبحن لا يدخلنه لا كل يوم ، ولا كل أيام ، بل لا يدخلنه أبداً إلا إذا أحست إحداهن بألم طفيف فى البطن يعتريها فى يوم معين من أيام الشهر . والضحكات تلاشت وغدت لا بمقدار ولا بغير مقدار . حتى الهمسات انقلبت مع الأيام إلى صمت مميت .

وهكذا غدون بين عشية وضحاها ، بعد أن كن كنسمات الصباح يرففن على الحياة عطراً وشذى ، غدون كراهبات ذهبن إلى الدير ليكفرن عن الخطيئة الآثمة ، لا بالتعبد والتبتل ، وإنما بالتقشف وتعذيب الجسد ، كما ألفت الناظرة نفسها هذه الحياة واطمأنت إليها ، وعادت الابدسامة العريضة تداعب شففتيها المرتعشتين حيناً ، وترسم أحياناً على جبهتها العريضة المترهلة .

ومكش كذلك أياماً إلى أن حدث ذات يوم أن كسرت ماسورة المياه فى المدرسة ، وأبرقت الناظرة إلى التفتيش فأرسل إليها مع الظهر بأحد العمال ليصلحها ويعيد المياه إلى مجاريها . وأسقط فى يد الناظرة عند ما أنبأها الفراشه أن التفتيش قد

أرسل فعلا عاملا من العمال ليصلح الماسورة المكسورة . ولكنها
بعد تفكير ولأى سمحت مرغمة لذئب من الذئاب البشرية أن
يدخل المدرسة ، وأن يرى المدرسات السبع ويرينه ، وأقبل العامل
وكان قتي في الثامنة عشرة من عمره تلوح فتوته وقوته من خلال ثوبه
الرث وقيصه الملوث ، الذى أحالت لونه إلى عدة ألوان مختلفه
باهته نقط الزيت التى سرت عليه ، وحرارة نار « الكور » التى
لفحته . وكان رغم زيه هذا الرث البالى معنى بنفسه عناية فائقة ،
كأنه أبى أن يجعل جمال خلقته يندثر فى أوساخ مهنته ، فشعره
اللامع المسترسل قد صففه على طريقة جميلة . وعيونه الواسعة
تلاحظ عنايته بها من نظافتها وتبلور نظراتها ، ووجهه المشرق
الضاحك ترى جمال تقاسيمه وقوة تأثيرها من خلال بشرته الغضة
اللامعة التى تقطر شباها وفتوة ، وعوده الفارغ الممشوق تلوح لك
الحياة الزاخرة فيه من خلال ساعده الملتف ، وعضلاته القوية ،
وصدره العريض المشرب .

ولذلك ما إن أقبل على المدرسة وأبصرت به الفتيات السبع ،
حتى سرت فيهن رعدة جارفه هزت جسومهن ، وعقدت ألسنتهن .
وكأنهن شعرن فجأة بالظما الذى عانينه فى أيام الجفاف الطويلة ،
فرحن يلهمنه بعيونهن التهاما ، ويشرحن له وطأة ، ولكن بنظرات
انعقد من حرارتها ولباقتها . وأسرعن إليه فرحات مهرولات ،
وما إن اقتربن منه حتى أحسسن بشيء ينقصهن ، فارتدن مسرعات

إلى المخدع العذرى ، ورحن يبحثن فى الدواليب عن ثياب جديدة
عنى عليها الزمن فارتدينها . وبحثن أيضاً عن وجوههن فألفينها
ما زالت كما هى ، وإن كان قد قتلها الشوق إلى الزينة فرحن يبحثن
عن أدواتها ، ولما أجهدهن البحث عنها استلقت حكمت من
فكرية أصبح الأحمر القانىء ، ونعيمة من زينات عليه الأبيض
الخفيف ، وفاطمة من سميرة زجاجة العطر التى لم تفتح منذ شهور .
ثم لما كملت زينتهن ارتددن إليه ، والتفنن حوله يسألنه حيناً عن
الماسورة المكسورة ، والمدة اللازمة لإصلاحها ، وحيناً عن الدنيل
فى الخارج ، وهل هى ما زالت بخير . وهل فيها الكثير من أمثاله
والكثيرات من أمثالهن ؛ ثم يسألنه غير ذلك أسئلة هن أنفسهن
لا يعرفن لها معنى . كل ذلك وهو يحبين إجابات متقطعة حيناً ،
وحيناً يشغل عنهن بالعرق المتصبب من جبينه ، وبالوابور الذى
يرسل النار من يده إلى الماسورة فيصهرها .

وجأة أطفىء الوابور ، وجفف العامل عرقه المتصبب ، فأسقط
فى أيديهن ، ونظرن إلى بعضهن ساهمات زائغات . ولكن إحداهن ،
وهى زينات ، نظرت إليهن نظرة ذات معنى ، ثم اختفت حيناً
وعادت تهمس إليهن ببعض كلمات انطلقت على أثرها وجوههن
تفيض بالبشر والرضا ، وتقدمت إحداهن منه وأنباته وهو يجمع
أدواته ويضعها فى صندوقه الخشبى ، الذى اعتاد أن يحمله دائماً
على كتفه ، أن ماسورة المياه الخارجية الموصلة من الصهرىج

للدخل كسرت هي الأخرى ، ولكن بالقضاء والقدر .

وتقطب جبين الفتى المنهوك ، واربدت ملامحه ، ولا سيما
عند ما عرف أن إصلاح هذه الماسورة سوف يستغرق منه وقتاً
طويلاً ، والليل قد أقبل أو هو على وشك الإقبال . وهنا تضاعف
فرحهن ، ورحن في نشوة يقبآن زينات الماكرة التي كانت هي
القضاء الذي كسر الماسورة .

وانتهى الفتى من إصلاح الماسورة الثانية ، ولكن بعد أن
أقبل الليل وانقطعت المواصلات ، وأصبح لزاماً عليه أن يبيت
في هذه المدرسة النائية . ولكن أين يبيت ؟ وفكرت الناظرة في
هذا الخطب الجليل الذي ألم بالمدرسة هذه الليلة ، بيد أنها اهتدت
أخيراً إلى حل موفق ، وأصدرت أوامرها بأن تهيأ « للسكركى »
منامته في الكشك الخشبي القائم في طرف الحديقة .

وذهب الفتى إلى الكشك راضياً عنه وعن منامته التي أعدت
له ، وكانت عبارة عن غطاء من الصوف الخشن عليه أن يفرشه
أو يلتحفه إن أراد .

وأغلقت أبواب المدرسة ونوافذها بإحكام ، لأن الناظرة
مرت عليها وتفقدتها قبل أن تنام ، ولما تفقدت أيضاً مخدع الفتيات
السبع ورأتهم مستغرقات في نوم عميق ذهبت إلى مخدعها مطمئنة .
ولكن الفتيات الخبيثات قد غررن بها ، لأنهن ما إن تأكدن من
ذهابها إلى مخدعها حتى قمن خلسة وفتحن النافذة ، وما إن فتحت

النافذة المطلة على الحديقة المترامية حتى رأين منظراً رائعاً أثار
أنوثتهن ، وأعاد إليهن الشباب الشائر الفائر ، الذى كانت قد ثلجته
حياة الرهبنة والتقشف التى فرضت عليهن ، فقد رأين القمر وهو فى
لحظة من لحظات إشراقه يداعب بضحاكاته المتبلورة الحديقة الوسنة ،
التى راحت تتطلع إليه وكأنها عروس فى مخدعها ترنو إليه فى خجل
يزيدة تعلقاً بها ، ويروح يصب عليها أحلى ابتساماته التى تنعكس
على ورودها المتفتحة فتحيلها إلى شبه نجوم تلعب ضاحكة .

ورأين كذلك الكشك الخشبى القائم فى طرفها تحف به بعض
شجيرات الليمون الوارفة ، وهو قائم فى وسطها يتطلع هو الآخر
إلى السماء ويداعبها ، ولكن فى ابتسامة تختلف عن تلك التى يداعب
بها القمر الضاحك الورد المتفتحة .

وأمعن النظر فيه ، فى الكشك ، وفى الشجيرات التى حوله ،
وفى البلب الذى أوى إليه هذه الليلة ، والذى لم ينم بعد لأن الباب
لم يزل بعد مفتوحاً .

ونظرت زينات إليهن فرأت وجوههن مخضبه .. ونظر النكل
إلى زينات فرأين وجهها يكاد يقطر دماً .

وتقدمت حكمت ، من الباب ، ففتحته ..
وانطلقت فكريه ، ولكن إلى مخدع الناظرة ، واستيقنت
من غلق بابها .

وعادت زينات تنظر إليهن .

وعاد الكل ينظرون إلى زينات .

وأُسبِلت زينات هديها في خفر جم ورد خديها . . ومن ثم نظرت إلى الباب .

وانطلقت الحمامات السبع بعضهم إثر بعض ، يتمايان في غلالات بيضاء رقيقة ، كشفت عن الصدر ، ولم تبلغ أعلى الساقين حتى بلغن طريق الكشك فعرجن عليه ، يخطرن على مهل مترنحات الأعطاف .

وبيناهن على خطوات من عش الليل فوجئن بالناظرة خارجة من الكشك . تنظر إليهن مرتعدة والدموع تسيل من عينيها .

واحدة هي التي كانت في إحدى نوافذ المدرسة تنظر إلى الحمامات السبع ، وهي تتفرق وجلة منذرة ، وتضحك ملء شديها : تلك هي الفراشة التي كانت قد سبقتهن وقدمت للبلبل عشاءه ، وعادت منذ ساعات .

هتاف الجماهير

ضاقت ذرعاً بالمضجع النسابي ، وأشفقت على عينيها اللتين
أطفأهما السهد فتلمستهما بيدانها الذابل المرتجف ، ثم حسرت عنها
غطاءها في ضيق وحزن أمضها طيلة ثلاث ليال كانت على نفسها
أطول من الثمانية عشر عاماً التي ساختها من العمر . واعتدلت في
الظلام على حافة سريرها الضخم الذي ملأ ثلاثة أرباع مخدعها ،
ودلت ساقها إلى الأرض ، فارتكزت عليهما بذراعيها ، ثم حملت
رأسها المحموم على راحتين لا يعلم إلا الله وهي ما يعانيان من
رعشه واضطراب . وأسبلت عينيها ، وأخذت تعيد في صمت ،
وللمرة العشرين ، قراءة تلك الرسالة التي قطعت كل صلة بينها وبين
الحياة ، والتي جاءت منها ، منذ ثلاثة أيام ، سرّاً كما كانت تجهيئها
رسائلها منه سرّاً ، والتي تختلف عن كل ما جاءها منه من رسائل .
وعما كانت تأمل أن يجيئها منه من رسائل .

لقد أنبأها في هذه الرسالة ، أو في سطورها الأربعة ، أنه لأمر
خارج عن طوق إرادته يقطع صلته بها ، وينفض يده من خطبتها
التي كانت سرّاً بينهما ، وأنه يأسف لهذه القطيعة أسفه على عدم
تمكّنه من رؤيتها قبل رحيله المفاجيء عن المدينة لتسلم مقاليد
منصبه الجديد ، الذي يجب أن يهتم به ، ويفضله مبدئياً على الزواج
ورددت شفتاهما المصفرتان المضطربتان هذه الكلمات ، ورددت
أيضاً تلك الجملة التي جاءت على الهامش بعد التوقيع : « وإن تسكن
لى رغبات فأولها أن أسمع عنك كل ما يسرني وكل ما يسر الرجل

المخلص (للآنسة) التى أتاحت له أن يقضى معها أسعد اللحظات .
ولم ينس أن يذيل هذه الجملة أيضاً بالتوقيع الذى ذيل به
الرسالة — صديقك المخلص : سالم حمدى .

ولكن هذه الآنسة التى يشير إليها ، والتى وضع لفظها بين
قوسين لم تكن كذلك الآن ، لقد وثقت به واطمأنت إلى وعوده ،
وإلى أحضانه أيضاً ، فأتاحت له أشياء . وأتاح لها (أشياء) .
أتاحت له تلك اللحظات التى يعترف فيها بسعادتها ، وأتاح لها تلك
الليالى الثلاث السود التى تلمس شقاءها . أتاحت له لذة الظفر ،
وأتاح لها . . . خيبة الأمل !! وأى خيبة تتعاضم وتعلو مفرق فتاة
تدعى آنسة وهى امرأة . . . وتعرف بعذراء ، وبوادر الأمومة
تلوح لأحشائها . أى خيبة هذه ، وأى هوة يردىها فيها بيديه .

ولكن أيقبل هو هذا ؟ أيرضاه . أيطمئن إليه .. ؟ إنه شريف ..
إنه نبيل .. إنه ابن لأحد البشوات الذين نجهلهم .. وننزلهم من
نفوسنا أسمى منزلة .. إنه . . . فهل يكون كذلك ؟ . وهل ترضى
أنامله الذى تخط هذه الرسالة ؟ وهلا تكفى وحدها أن ترغمه على
الوفاء بالعهد وتحقيق الوعد .

وكفكت عبراتها .. وتمتت شفتهاها : « قد يكون ذلك
يا سميرة .. ولكن بعد أن يذاع أمرك بين الناس ، وتموت أمك
حزناً على فجيعتك ، وحسرة على نقيصتك . بعد أن يتوارى أبوك
خجلاً ، ويتلاشى اسمه الكبير المحترم الذى تردده الصحف صباح
مساء بين المرشحين للوزارة ، بعد أن ينهار كيان أسرته ، ويدك

صرحها أقدام الناس الذين لا يفرقون بين الظالم والمظلوم . . .
بين الغالب والمغلوب . . . بين الرجل والمرأة .

ولولا ذلك لما بعث إليك بهذه الرسالة . . . لما أغمد هذا الخنجر
في صدرك . . . لما خيرت بين الموت الدنيوى والموت الأبدى .
وانفجرت باكية ثم أصغت : سميرة ! سميرة ! إذا أردت لهذه
الأسرة أن ترى الشمس ، فعليك بكهوف الجبال . . . وإذا أردت
لها الحياة فعليك بالموت .

.. و .. ودقت الساعة ثلاث دقات كبيرة فى جوف الليل .
فانتفضت فى جلستها ، وعلمت أنها حقيقة تقلبها ، لا أوهام تتخيلها ،
فتتابعت دقات قلبها .

وقامت متشاقلة معتمدة على عمود سريرها الفضى ، والتصقت به ،
وافقت ذراعها عليه ، كأنها تحتفى فيه أو تناجيه . ثم استرسلت فى
بكاء أخرس ، وعبرات بكاء انفطرت لؤلؤية على صفحة الخد
الأسيل . !!

وظلت كذلك إلى حين ، ثم مدت يدها وحسرت الستر
الحريرى الفاصل بين السرير والحائط ، وكيفسكت عباتها وجففت
عينها . ثم ارتفعت النافذة وأطلت منها على الليل الساجى والكون
الشامل ، والأمل الغريق فى سراب الحياة . . . وحانت منها التفاتة
إلى الليل الرابض تحت أقدام قصرها ، وطالعها طويلا عريضا .
ولكنها رأتها هادئسا كنا مطمئنا كأن لم يحدث فى الوجود شئ ما ،

وكان عذراء لم تفجع في عرضها ، وكان جنينا يهيا للوجود ولم ينكره أبوه .

ونظرت إلى عرض النيل فوجدته شاسعاً . وبعثت بطرفها المحزون إلى طوله فلم تبلغه ثم أنفذته إلى قاعه فرأته رحباً فسيحاً يسع الألوف من الناس . فاطمأنت . وانفجرت أساريرها عن ابتسامة حلوة فتنت النهر ، وانتشت لها صفحته الرقراقه . وكأنها أسرت إلى البحر أشياء ، وكان البحر أسر إليها أشياء . وكأنهما اتفيا إلى ميعاد فأغلقت النافذة في هدوء . وعلى غير وعى منها تزعت (بيجامتها) الوردية الرقيقة ، وارتدت ثوبا أسود اللون ، تناسب دكنته اللثام الذي تلثمت به . ثم لما اطمأنت إلى حشمة زيتها الذي ستستقبل به عالمها المجهول . نظرت إلى مخدعها المنسق الجميل . وألقت نظرة عجلي عليه . وحانت منها التفاتة إلى علبة حليها الكبيرة ، وثيابها الجملة الثمينه ، فرنت إليها ثم أغمضت عينيها ، وودعتها في صمت ، وأغلقت عليها الدولاب في هدوء ، ودلفت تتحسس الخطى .

ورأت في طريقها باب مخدع أبويها مفتوحا ، فملع قلبها وتعالى خفقانه ، ولكنها هدأت عندما رأتهما نائمين ، فوقفت حياهما لحظة ، وألقت عليهما نظرة ، ثم تركتهما مطمئنة إلى الثمن الذي ستدفعه . وذهبت إلى الغرفة المجاورة : وعالجت بابها في رفق حتى استقام لها . فرأت أخويها الصغيرين مستغرقين في نوم هادىء لذيذ ، وقد أضفت عليهما براءة الطفولة وطهرها شيئاً من الرهبة

التي تستشعرها بين يدي الله ، فلم تقربهما ، ولكنها انحنت على سريرهما ، وركعت أمامهما . . وخشيت أن تلوث هذا الطهر إن هي قبلتهما ، أو حتى لامستهما ، فدفنت رأسها المحموم في فراشهما الوثير ، وبكت فراقهما صامتة ، وسألت لها حظاً يختلف كثيراً عن حظها ثم ردت عليهما الباب وهي تسحب خيوط نظراتها رويداً من علي وجهيهما ، وانطلقت إلى الشارع .

واستقبلها النيل فرحاً بها مبتسماً لها ، فابتسمت هي الأخرى له .
ولكن زادت قائمة :

« سألقاك . ولكن بعيداً . . بعيداً جداً . . حتى لا يتعرف علي أحد إذا لفظتني أنت الآخر ولم تكرم وفادتي . .

ومن ثم سارت في الطريق تضرب على غير هدى ، وكلما طالعت شبحاً بعيداً في الظلام ذهبت إليه ودانته ، وتبينته ظناً منها أنه هو يسعى إليها ليسترد رسالته ، ويقول لها إنها كانت دعاة سخيفة ، ويستغفر عن سخافتها ، ولكنها لم تجد إلا أشباح الأعمدة الصلبة التي أقيمت على جنبات الطريق ، توصل للناس برقهم أو نورهم .

وظلت كذلك إلى أن وقفت أمام مبنى جميل ، كثيراً ما قادها إليه . وكثيراً ما جلست معه فيه ينسجان خيوط الآمال والأحلام ويهيئان من غرفاته ما يتيسر للبلبل الغريد أن يرجع أعذب الألحان وهمت أن تدخله كعادتها ولكنها رأت بابة الفولاذي موصداً بسلسلة حديدية طويلة ، كأنها حية رقطاء تحميه ، وهمت أن تنظر

إليها وتعالجها. ولكن شغلتها عنها تلك الورقة السمكية التي علقته على جانبه، وكتب عليها بأحرف كبيرة (الإيجار). نظرت إلى هذه الورقة وددت كل حرف فيها مرات، ثم انصرفت عنها تحفف عبراتها.

وبينما كان قطار (الفجر) يفرغ على أفريز المحطة الكبيرة ركابه العديدين الذين اكتظ بهم دهليزها الرحب الفسيح، كانت هي تتطلع إلى لوحة كبيرة معلقة، وتتفرس في أسماء المحطات، وتدقق في الأسماء التي لم تكن قد سمعت عنها من قبل، ثم اختارت من بينها اسماً.

وبينما كانت أمها في طريقها لتسألها سر أرقها طول الليل، كانت هي في القطار السريع تقطع الفراسخ، وتطوى الأميال، في طريقها إلى العالم المجهول..

ووقف بها القطار في محطة قبل التي تنتهي إليها تذكريتها، فنزلت فيها، لأنها وجدت النيل يستقبلها هناك في وقت متأخر من الليل، غفلت فيه عن الرقيب.

وانحدرت من المحطة، وحاذت النيل، مغمضة العينين خشية أن تخيفها أشباح الليل فتثنيها عن العزم الصادق الأكيد، ووقفت على صخرة جاثمة فوق منحدر الشاطئ، ثم فتحت عينيها.

وكأن السماء صاحت بالأرض أن تنكس أعلامك. وأوقني دورانك إجلالاً لرهبة الموت، واحتراماً لرغبة مظلوم، فنام القمر على صفحة اليم مستسلماً مستكيناً، وتضاءل النسيم وتوارى خلف

الأفق، ونكس الشجر أغصانه ، وكنتم أنفاسه حتى لا يبدى حراكه ،
والنيل أخذته سنة من السكرى فنام متثائباً عند أقدام الشجر ،
وحدود الصخر .

وبحركة هادئة ألقت عن جسدها الوشاح الأسود ، وسقطت
خيوط القمر الفضية على جسم بدا عارياً إلا من غلالة رقيقة بيضاء
بوجه جميل تمشت منه سحابة دكناء ، وعينين دجأوين ينظران
في هدوء إلى السماء . وانفرجت الشفتان المرتجفتان عن آهة طويلة
ردد صداها الحزين الكون الوسنان . وبعد خطوة ثابتة هوى
الجسد الحزين البض إلى قاع اليم !

وتوارى البدر وراء سحابة سوداء ، وانطلق النسيم صارخاً
كشيطان أرداه نيزك من السماء . واستيقظت الأشجار هائجة على
أغصانها ، واثارت ثائرة النهر الخضم ، وهاج هائجة ، وكشف عن
سريره فأرغى وأزبد ، وما لبث أن قذف بها فوق صفحته ، فأرسل
الله لها ساعداً قوياً .

وأفاقت في ضحى اليوم الثانى من إغفائها الطويل ، فوجدت
نفسها على فراش من القش ملفوفة بغطاء سميك من الصوف الخشن ،
وأجالت عينيها في أطراف السكوخ المتهدم الذى احتواها ، فلمحت
في الجانب الآخر شيخاً مسرسل اللحية ، مغضض الوجه مترهل
الجبين العريض ، الذى انبسط فوق عينين صغيرتين نفاذتين . وقد
شمر عن ساعديه وهو دائب العمل في شبكته ، فأغمضت عينيها ،

ثم عادت ففتحتهما ، فكانت حقيقة . فأسلت أمرها لله ، وأفضت إلى الشيخ بكل ما كان من أمرها . وقص عليها هو كيف انتشلها من الماء وهو يجوب البحر بقارب صيده ، وحملها إلى كوخه . ومضت لحظة قطع الشيخ فيها حبلا طويلا أوصله بأطراف إبرته الكبيرة ثم قال :

—والآن أظنهم يبحثون عنك ، فهل أبرق إليهم ؟
فانتفضت مدعورة ، ودانته متوسلة ولثمت يده الراعشة وقالت :
—هل سيلفطني صدرك أيضاً ، وتقذف بي أنت الآخر ؟
— وفكر الشيخ قليلا ، ولمعت عينهاها الهرمتان ، ثم تبللتا بدمعة طاهرة ، جالت ثم انسكبت على خده ، وقال :

والكنك لا تستطيعين أن تحي معي حياتي هذى الخشنة .
وأشار مبتسما إلى شبكته ، وكوخه ، ومكتل من سعف النخيل ، به بقايا من خبر قديم متكسر . فنظرت إليه باكية ، وهي تتأمل آمالها المتوارية خلف جبينه العريض المتعفن .
وقالت :

— في هذا كله آمالي .

وزمت على شفيتها ، وزم على شفتيه ، واتصل الصمت بينهما ولكنها أعادت النظر إليه وأدامته ، ثم قالت بعد حين :
—ولكن إذا قبلتني ، هل تقبل الخطيئة ؟

فابتسم الشيخ وقال وهو يجمع حبال شبكته : وإذا لم يواس
المظلوم أخاه ، أيواسيه ظالمه ؟

وإذا لم يكفر الفقراء عن خطايا الأغنياء ، أيكفر عنها
مرتكبوها ؟ .

ثم قال : لقد كانت لي ابنة ، هي كل ما بقي لي في الحياة ، غرقت
في اليم ومضت . فلتسكوني أنت ابنتي .

ومضت سبع سنوات قضتها في صومعة الصياد تغسل خطيئتها
بالدموع ، وتكفر عنها بالاستسلام المرسل للعلّة الفتاكة التي
لازمتها ، وحرمتها سبع سنوات رؤية الشمس ، ومبارحتها
الـ كان الذي أفاقت من غشيئتها فرأت نفسها فيه ، ومضت سبع
سنوات لم يدخل عليها في كهفها المظلم سوى الشيخ بساعده
المرتعش ، وساقه المهتزة ، وقلبه الكبير ، فيسألها أشياء ، وتسأله
أشياء ، ثم يدعو لها وينصرف ! وتدعو له وتذرف الدمع السخين !
وصبي في السابعة من عمرة يقضى معها الليل نائماً أحياناً ، وأخرى
ساهرأ يعد بجوارها ما جمع طول اليوم من أعقاب اللفائف ، أو
يرتق بيده ما انفتح من ثوبه البالي المهلهل . وهو ينظر إليها ، وكلما
ثقلت عليها العلة وتلوت في فراشها البالي تمتمت شفتاه (أماه)
وهي تنظر إليه ، وكلما رتق فتقاً في الثوب انشق آخر ، تمتمت
(ابناء) حتى يطل عليهما الصباح كما يطل تماماً على سكان القصور
فيدخل عليهما الشيخ ، ويناول الصبي أعز ما يملك ، وماذا يملك

الشيخ غير كسرة من الخبز المقدد والمالح الحشن ، فيتناولها الصبي فرحاً بها ، مبتسماً لها ، مقبلاً يد متصدقها مرات ، ثم ينصرف ولا يعود إلا عندما يحول الظلام بين عينيهِ والأعقاب المتوارية. ثم عاد ذات ليلة وكان فرحاً ، مرحاً ، متهللاً على غير عادته ، وأقبل على أمه وقبل ثغرها المهمهم المقرور ، ويدها النائمة على الأرض بلا أى حركة ، وقال :

غداً ستذبح الشاة والأبقار ، وتوزع الصدقات . وسأكل لحماً كثيراً يا أماه . غداً سيزور مرشح الدائرة البلد وتولم له الولائم الكبيرة التي سيصيبنا بقايا طعامها الحلو اللذيذ .
فرفعت الأم رأسها إليه ، وألقت براحتها المنوكة على رأسه ، وتطلعت إلى عينيهِ ثم تمتمت وقالت :

- أتشتهى اللحم يا بنى ؟ .

فقال الصبي جاداً : إنه لذيذ يا أماه . أتذكرين يوم أكلناه في وليمة المرشح السابق ؟

وترأخى ساعد الأم ، وسقطت عن رأس الصبي ، وأدارت وجهها ، ودارته بغطائها البالي ، وواصلت نعيمها الصامت ، بينما راح الصبي يعد أعقاب لفائفه ، وهو يتلظ ويتغنى بولية الغد وفرغ من عد ما كان في علبته الصفيح الصغيرة : ووضع يده في جيبه ليخرج ما بها ، فعثر على (منشور انتخابي) حدد فيه موعد الحفلة ، وكذلك توزيع الصدقات :

فالتفت إلى أمه فرحا وقال : -- أنت لاتصدقين . انظري
ها هو الإعلان . اقرأيه . اقرأيه لى --

وتناولت منه المنشور الكبير ، وقرأت فيه بالخط العريض .
انتخبوا الرجل الغيور (سعادة سالم بك حمدى)

ورأأت عيناها وزوت ما بينهما ، وقلبت دهشتها وضع
الحروف فلم تنطق الاسم صحيحاً ، فألقت عنها غطاءها الحشن ،
واعتمدت فى جلستها قليلا ، وعركت عينيها وجففت دمعهما . ثم
قربت منها المصباح الخافت وقرأت الاسم مرات . وظلت تقرأه
حتى استقامت معها حروفه . ونطقته كاملا . وفهمته صحيحاً ،
فانفلتت من شفيتها آهة محزونة انطفا لها المصباح الخافت ، ورن
صداها الحزين فى أرجاء الكوخ المتهدم ، واهتز جسدها المريض
هزات متواليات ، وتصلبت أناملها على المنشور . وسمرت عينيها
فى أحرف الاسم الذى أخذت تردده فى الظلام . ثم تفرست فيه
وأدامت النظر ، ورأت صاحب الاسم بوجهه الذى تعرفه ، وزيه
الجميل ، يخطب فى الناس تحفه العظمة ، وتحوطه الهيبة ، وتشرئب
له الأعناق . ثم رأت خلف السراق الكبير الذى احتشدت فيه
ألوف الناس صدياً صغيراً عارى الرأس ، مشعث الشعر ، ممزق
الثوب ، قد جمع بيده المهتزة طرفا ثوبه المهلهل على جسده ، وهو
يتطلع بعينين آكلهما الصديد إلى لفافة فى يد رجل ، ويتربقب قذفها
ليتناقفها ككلب قبع أمام سيده الذى يأكل .

وتلاشت هذه الصورة على أثرهزة مفاجئة انتابتها ، فأرعشت
الأنامل ، وخلصت منهما الورقة التي سقطت على الأرض ، وهوى
فوقها رأس ثقيل — وتلس الصبي أمه فوجدها ، ولكن جثة هامة .
وفي قيلولة اليوم الثانى وقت الظهيرة ، كان نعش محمولا على
أعناق أربعة من الفقراء ، يرون فى حمل الموتى خير صدقة يتصدق
بها الفقير ، وكانوا هم كل من سار فى الجنازة .

وبينما هم فى طريقهم إلى المقبرة البعيدة ، قابلهم رتل من
السيارات يحمل عددا غفيراً من الناس ، تحقق على رؤوسهم البنود
والأعلام ، وتقدمهم سيارة ضخمة ثرت على جوانبها الورود
والأزهار ، وعقد فوقها قوس النصر مصنوعا من سعف النخيل ،
وفى وسطها جلس مرشح الدائرة الجديد .

ووقف الموكب حتى مرت الجنازة ، ولفت نظر سعادة المحتفل
به أن شيخاً يتبع النعش باكياً ، ويحمل على صدره المكدود طفلاً
يولول وينتحب ، فاستوقفه وسأله عن سر بكاء الصبي وانتحابه ،
فأشار الشيخ بيده الواهية المرتعشة إلى النعش البعيد وقال :
— إن أمه قد ماتت .

فنظر البك إلى الصبي المنتحب ، والشيخ الباكي ، ثم نظر إلى
الناس ، ولما تحقق من أن عيونهم منصوبة إليه ، أخرج حافظته
وناول الصبي جنيناً .

وإذا بهتاف الجماهير يشق عنان السماء : يحيا رجل الإحسان !!
يحيا رجل الإحسان . . .

تفضل صديق الفنان حسين بدوى
بوضع صورة الغلاف والاستاذ بدوى
غنى عن التعريف ، فقد سبق وعرف
عنه فنه ، الذى يمتاز بعمق الفكرة
وإبراز المعنى ودقة التصوير .

DATE DUE



892.73:G421HA61

لجنة النشر للجامعيين
هتاف الجماهير

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01037956

American University of Beirut



892.73
G421HA61
A

General Library

